الرسالة ٣٨٨

تحليل لغوي أسلوبي
لسورة القلم

د. محمد مريني

الكلية المتعددة التخصصات بالناظور

جامعة محمد الأول (وجدة)

المملكة المغربية

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية الرابعة والثلاثون - ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣م

المؤلف

د. محمد مريني
- دكتوراه الدولة من جامعة محمد الأول بوجدة، عام ٢٠٠٣.
- أستاذ باحث بجامعة محمد الأول، الكلية المتعددة التخصصات بالناظور. المغرب.

الإنتاج العلمي:

أولاً- الكتب:

- سوسيولوجية القراءة. دار النشر الجسور بمدينة وجدة، ٢٠٠٦.
- سيكولوجية القراءة. دار النشر الجسور بمدينة وجدة، ٢٠٠٦.
- سيميولوجية القراءة. دار النشر الجسور بمدينة وجدة، ٢٠٠٦.
- في التواصل والذكاء الاصطناعي. دار النشر الجسور بمدينة وجدة، ٢٠٠٧.
- تاريخ الأدب: قراءة في الأصول والامتدادات. دار النشر الجسور بمدينة وجدة، ٢٠٠٧.
- تاريخ الأدب: قراءة في ثلاث مدونات. دار النشر الجسور بمدينة وجدة، ٢٠٠٧.
- تاريخ الأدب: قراءة في التوجهات الجديدة. دار النشر الجسور بمدينة وجدة، ٢٠٠٧.
- النص الأدبي: قضايا ديداكتيكية، دار النشر الجسور بمدينة وجدة، ٢٠١٢.

ثانياً- البحوث:

- التحقيب السياسي لتاريخ الأدب: الأصول والامتدادات، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، فصلية علمية محكمة، تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت، عدد: ١٠٦ - سنة: ٢٧ - ربيع ٢٠٠٩.
- نجيب محفوظ في النقد الحديث (النقد الاجتماعي نموذجاً)، مجلة فصول، مجلة محكمة تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، عدد: ٦٩، صيف - خريف ٢٠٠٦.
- المقاربة البنيوية التكوينية في النقد المغربي الحديث، مجلة العلوم الإنسانية، مجلة دورية محكمة تصدر عن كلية الآداب، جامعة البحرين، عدد: ١٢ - صيف: ٢٠٠٦م.
- خطاب ما بعد البنيوية في النقد المغربي الحديث، مجلة عالم الفكر، فصلية محكمة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، العدد: ٤ - المجلد: ٣٥ - أبريل - يونيو ٢٠٠٧.
- النقد المغربي الحديث: الأنساق السوسيوثقافية الكبرى، مجلة التاريخ العربي، مجلة محكمة، تصدرها جمعية المؤرخين المغاربة، العدد: ٣٧، صيف ٢٠٠٦.
- المنهجية في التاريخ للأدب العربي القديم، مجلة جذور، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ع: ١٨، شوال ١٤٢٥.
- التجربة النقدية عند سعيد يقطين، مجلة علامات (المغرب)، العدد: ٢٢، ٢٠٠٤.
- القراءة في السوسيولوجيا التجريبية، مجلة ثقافات، الكويت، العدد: ١٧، ٢٠٠٦.
- نقد النقد في المفهوم والمصطلح والمقاربة المنهجية، مجلة علامات في النقد، مجلد: ١٦، جزء: ٦٤، فبراير ٢٠٠٨.
- التاريخ الاستشراقي للأدب العربي وإشكالية المركز والهامش، مجلة البيان، رابطة الأدباء في الكويت، عدد: ٤٥٨، سبتمبر ٢٠٠٨.

المحتـــوى

ملخص ١١

مقدمة ١٣

تمهيد ١٧

الفصل الأول: المعجم ٢٣

الفصل الثاني: التركيب ٥٣

الفصل الثالث: الإيقاع ٧٧

الفصل الرابع: القصة ٩٩

خاتمة ١٠٧

الهوامش ١١١

المصادر والمراجع ١٣٣

ملخـص

البحث محاولة لاستجلاء الجوانب اللغوية والأسلوبية لسورة القلم. وقد تناولت هذا النص من خلال عدة مستويات: تناولت في الفصل الأول الجوانب المتعلقة بالمعجم. وكشفت من خلال الشروح والموازنات عما يتميز به اللفظ القرآني من دقة في الاختيار. كما تناولت الجوانب المتعلقة بالحقيقة والمجاز في هذا اللفظ؛ وذلك من أجل كشف الجوانب التصويرية في الأداء اللغوي القرآني. أما في الفصل الثاني فقد تناولت بالدراسة والتحليل التركيب النحوي للسورة. النحو المقصود هنا هو الذي يتصل بالناحية الجمالية والفنية، وذلك بحسب المباحث المعروفة في نظرية «علم المعاني» في اللغة العربية: من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وتعريف وتنكير... إلخ. كما وقفت عند بعض الاختلافات التي خاض فيها النحاة والمفسرون، حين يتعلق الأمر بمشكلة نحوية. تناولت في الفصل الثالث من البحث التركيب الصوتي للسورة. وقد قسمت الفصل إلى قسمين: درست في أولهما الفاصلة القرآنية، والنظام الصوتي ثم التوزيع الصوتي الذي تتوزع عليه الأصوات في السورة. أما القسم الثاني من هذا الفصل فقد تتبعت فيه مظاهر التجانس الصوتي في السورة، سواء على مستوى المقاطع، أم الكلمات، أم الحروف. أما الفصل الرابع فقد تناولت فيه بالدراسة والتحليل القصة التي وردت في السورة، وذلك قصد إبراز خصائص القصة القرآنية.

مقدمة

سئل أحد العلماء: ما خير تفسير للقرآن فقال: الدهر. أظن أن الأمر كذلك؛ إذ كلما تقدمت بالأمة عجلة التاريخ، احتاج الأمر منها أن تنكب على القرآن لتكشف فيه عن آفاق جديدة، ويظل القرآن الكريم متناً خصباً حافلاً بمظاهر الإعجاز.

على أن الناظر اليوم إلى مكتبتنا القرآنية قد يلاحظ النقص الذي تشتكي منه في الجانب الفني والأدبي بصفة عامة. فباستثناء بعض الدراسات المتعلقة بالقصة في القرآن الكريم، وبعض الدراسات الفنية الأخرى يظل الجانب الأسلوبي والأدبي – بصفة عامة– شبه غائب، وسط الأبحاث الأخرى التي تستقطب اهتمام الدارسين.

وتبقى الدراسات بعد ذلك منصبة على الآداب المختلفة قديمها وحديثها، منظومها ومنثورها. ورب متعجب يتعجب وهو يرقب هذا الوضع: لماذا أهمل القرآن الكريم، وهو المعجزة البيانية الخالدة؟! .أيهمل القرآن الكريم، وهو الأصل والحجة، ويعنى بغيره من الفروع؟!!

كل هذه الأمور كانت حاضرة في ذهني وأنا أختار دراسة الجوانب الأسلوبية واللغوية في القرآن الكريم.

ثم ماذا أيضاً؟!

لا يخفى على أحد أن القرآن الكريم قد شكل في أجيال غابرة محور الدراسات البلاغية والبيانية. ثم ما لبث أن دب في هذه الدراسات بعض الضعف، لما انصرف البلغاء إلى التبويب والتقعيد ودخلوا في المماحكات والخلافات التي لا تنتهي، ولذلك فقدت هذه الدراسات رونقها وماءها. وهذا أمر كثير ما وقف عنده الدارسون المحدثون، ونعوا ما انتهى إليه ذلك من خمود وركود. لكن، المشكل هو أننا لم نحاول بعد أن نعطي البديل. ونظرة سريعة إلى المكتبة القرآنية في الدراسات اللغوية والأدبية والفن بصفة عامة، تؤكد أن الأبحاث الخاصة بهذا الموضوع، لم تتجاوز بعد المواقع التي انتهى إليها البلاغيون القدماء.

هذا ما حفزني أيضاً لاختيار الموضوع، لعله يكون فيه ما يسد الفراغ الملاحظ في هذا المجال.

ولقد اخترت أن أدرس هنا سورة القلم. فلماذا هذه السورة بالذات؟!

لعله من فضول القول، أن نشير هنا إلى القيمة البلاغية والبيانية لهذه السورة. فالقرآن الكريم كله نمط واحد في الإعجاز، لكن هناك مع ذلك أموراً وجب مراعاتها، وحددت من ثم هذا الاختيار: فبتجنب السور الطويلة التي قد تحتاج إلى عمل موسع قد يكون خارج الحدود التي وضعناها لهذا البحث، وبتجنب قصار السور التي قد تفضي إلى نوع من التكلف والتمحل، كان اختيار سورة القلم؛ لأنها تمثل نمطاً متوسطاً من حيث الطول. على أنه لسورة القلم أيضاً ميزات أسلوبية وفنية ستتضح لنا فيما بعد. هذا، ونشير إلى أن دراسة سورة طويلة من القرآن الكريم دراسة لغوية –أسلوبية وصوتية – من شأنها أن تفتح الباب على مصراعيه للكشف عن أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، لكني فضلت – في هذه المحاولة التجريبية الأولى – أن أدرس هذه السورة المتوسطة الطول، على أمل العودة إلى دراسة نماذج السور الطويلة في أعمال لاحقة.

وقد اتبعت خلال دراستي لهذا النص القرآني التصميم التالي: فقد قسمت البحث إلى ثلاثة فصول رئيسية، بالإضافة إلى المقدمة والتمهيد والخاتمة، التي يمكن اعتبارها حواشي على الموضوع. تناولت في الفصل الأول الجوانب المتعلقة بالمعجم. لذلك فقد وقفت عند مستوى الألفاظ لأكشف من خلال الشروح والمقارنات عما في اللفظ القرآني من دقة في الاختيار، وروعة في الأداء. ولا شك في أن السبيل الوحيد لفهم ذلك هو المقارنة؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، واللفظ لا يفهم إلا مع نظرائه. ومن ثم أكثرت – في بعض الأحيان – من تلك المقارنات.

من المباحث الأساسية في هذا الفصل أيضاً ما يتعلق باللفظ القرآني بين الحقيقة والمجاز. لذلك فقد وقفت كثيراً عند التعبير اللغوي في السورة؛ وذلك من أجل الكشف عن الجوانب التصويرية في الأداء اللغوي القرآني.

تناولت في الفصل الثاني التراكيب النحوية في السورة، النحو المقصود هنا هو الذي يتصل بالناحية الجمالية والفنية للسورة. وذلك بحسب المباحث المعروفة في نظرية «علم المعاني» في اللغة العربية: من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وتعريف وتنكير... إلخ. كما وقفت على بعض الاختلافات التي خاض فيها النحاة والمفسرون حين يتعلق الأمر بمشكلة نحوية ما.

أما الفصل الثالث فهو خاص بالجوانب الصوتية للسورة. وقد تبين لي من الاستقراء أنه ثمة ظواهر عامة تتكرر في السورة بأكملها. وتجنباً لما قد ينجم عن ذلك من تكرار، آثرت أن أعزلها عن الظواهر السياقية التي تختلف باختلاف نصوص السورة. وقد هداني ذلك إلى تقديم الفصل في قسمين:

القسم الأول عبارة عن ظواهر عامة، درست فيه الفاصلة والنظام الصوتي، ثم التوزيع الصوتي الذي تتوزع عليه الأصوات في السورة.

أما القسم الثاني من هذا الفصل فقد تتبعت فيه السورة لأحصي بعض الظواهر الصوتية المختلفة من تجانس صوتي سواء على مستوى الكلمة، الحرف، الوزن أم النبر. كذلك أشرت إلى ما في السورة من تراكم صوتي لبعض الحروف، مع ما قد تحمله هذه الحروف من دلالة ذاتية. كما كنت – أحياناً – أتجاوز المستوى الصامت للسورة إلى المستوى الناطق، وهو ما يعرف في علم الأصوات الحديث بالأسلوبية الصوتية.

أما الفصل الرابع فقد تناولت فيه بالدراسة والتحليل قصة «أصحاب الجنة»، التي وردت في السورة، وذلك من أجل إبراز خصائص القصة القرآنية.

هذا إجمال للمباحث التي تناولتها في دراسة السورة، لكن تبقى هذه المباحث التي تناولتها في كل فصل من الفصول جد متداخلة، إنما فصلت بينها لضرورة منهجية فقط، أما في العمق فهي متشابكة: فالجانب البلاغي متصل بالمعجم، والتصوير مرتبط بالقصة... إلخ.

وبعد، هذه محاولة متواضعة لأن تقترب من بعض المناحي الفنية للسورة، لكن

لا تتقصاها. تذكر بعض الأسباب، لكن لا تحدها. فالقرآن الكريم كلام الله الذي يعلم السر وأخفى، ودراسته تتطلب من الدارس الكثير من الخبرة، والحذر، والتؤدة، والبصيرة، التي تسعف في مثل هذه الدراسة، وأنى ذلك لمثلي؟!!

وأسأل الله إن لم أدرك في ذلك أجري الإصابة، أن لا يحرمني أجر المخطئ. كما أسأله أن يجعل كل حرف كتبته، وكل سطر سطرته، وكل مجهود بذلته، خالصاً لوجهه الكريم.

تمهيد

سورة القلم هي السورة الثانية في ترتيب النزول بعد سورة العلق [١]، وهي مكية بالإجماع «استثني منها إنا بلوناهم إلى يحملون، ومن فاصبر إلى الصالحين، فإنه مدني حكاه السخاوي في جمال القراء» [٢].

من حيث سبب النزول؛ يذكر أبو حيان أنها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي وأبي جهل بن هشام المخزومي: «ومناسبتها لما قبلها (يقصد سورة الملك) أنه فيما قبلها ذكر أشياء من أحوال السعداء والأشقياء وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع... وكان ما أخبر – تعالى – به هو ما يلقنه رسول الله ﷺ بالوحي، وكان الكفار ينسبونه مرة إلى الشعر، ومرة إلى السحر، ومرة إلى الجنون. فبدأ – سبحانه وتعالى – هذه السورة ببراءته مما كانوا ينسبونه إليه من الجنون، وتعظيم أجره على صبره على أذاهم والثناء على خلقه العظيم» [٣].

الظاهر من النص أن أبا حيان، اعتمد في تعليله على ترتيب السورة في المصحف. لكن يمكن الاعتراض على هذا الرأي، لسبب بسيط وهو أن سورة الملك نزلت جد متأخرة، بينها وبين سورة القلم أكثر من سبعين سورة [٤]. أما المصادر الأخرى الخاصة بالموضوع فلا نجد فيها شيئاً ذا بال [٥].

السورة في إطارها العام تنقلنا إلى الأجواء الأولى لبداية الوحي؛ حيث كان الرسول ﷺ قد بدأ في غرس تلك النقلة الغريبة – آنذاك – عن المحيط الجاهلي ؛ هذا المحيط الذي كان يموج بشتى الأضاليل والأباطيل. ومن ثم كان لابد من صدام بين تلك التصورات الضالة ، وما جاء به الرسول، عليه الصلاة والسلام.

والجدير بالذكر أن هذا الصراع كان غير متكافئ. فمن جهة، نجد المشركين ومن لف حولهم بقوتهم وعدتهم. ومن جهة أخرى، نجد هذه الحفنة القليلة المستضعفة التي تخاف أن يتخطفها الناس. أما المشركون من جهتهم فقد أعلنوها حملة شعواء، على الرسول ﷺ والقلة المؤمنة. فكان المكر والإذاية والسخرية [٦]. وقد ورد في

هذه السورة نفسها إشارة إلى بعض أشكال الإذاية التي كان يتعرض لها الرسول ﷺ: فقد تكررت الإشارة إلى قولهم عن الرسول ﷺ إنه «مجنون». وقد وردت هذه الصفة في ثلاثة مواضع من السورة:

- ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾.
- ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾.(إذا أخذنا بالرأي الذي فسر «مفتون» بـ «مجنون» كما سنرى لاحقاً).
- ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾.

كما تكشف السورة عن محاولتهم استمالة الرسول ﷺ عن طريق الإدهان والمداراة: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾..

كما تتحدث السورة عن أساليبهم في المكر والإذاية، فتصف أحدهم بأنه: ﴿حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

وتفيض كتب السيرة في الحديث عما كان يلاقيه الرسول ﷺ في ذلك الوقت. من ذلك ما أورده ابن هشام في سيرته في قوله:

«(....) ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم»[٧].

كما تذكر المصادر أسماء أخرى غير اسم الوليد بن المغيرة مثل: الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي؛ وقالوا هو المقصود بـ: «الزنيم» في الآية السابقة. وتذكر هذه المصادر أيضاً الأسود بن عبد يغوث، وقالوا هو المقصود بقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

وإذا كان الرسول ﷺ نبياً، فهو بشر يألم كما يألم البشر أيضاً. وكان من الطبيعي أن يتأثر بمثل هذه الأوصاف. ومن ثم نرى كأن الله يختص – سبحانه – رسوله ويواسيه ويبين ما كان عليه من خلق عظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. كما يتعرض – في المقابل – لما كان عليه خصومه من سوء الأخلاق:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾. ويصف خصومه بالضلال أيضاً ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

لذلك يمكن القول إن السورة التي بين أيدينا تتقاسمها، في إطارها العام، ثلاثة مواضيع تقريباً:

– موضوع الرسالة، والشبهات التي كان يروجها أعداء الدعوة حول الرسول ﷺ.

– قصة أصحاب الجنة لتبيان نتيجة الجحود بنعم الله.

– الآخرة وما فيها من أهوال وشدائد.

يمكن من خلال ما يلي تتبع صيغ انتشار الموضوعات الثلاثة في فضاء السورة بالطريقة التالية:

– **الوحدة الأولى**: (الآيات: ١ إلى٧) ابتدأت السورة بالقسم على رفعة شأن الرسول عليه السلام، وبينت ما يتصف به من أخلاق ومناقب سامية: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

- **الوحدة الثانية:** (الآيات: ٨ إلى ١٦) تناولت موقف كفار مكة من دعوة الرسول ﷺ، وما أعد لهم من عذاب: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

- **الوحدة الثالثة:** (الآيات: ١٧ إلى ٣٣) ثم ضربت مثلاً لكفار مكة في كفرهم بنعمة الله بقصة أصحاب الجنة ذات الثمار والأشجار؛ حيث إنهم جحدوا بنعمة الله فأحرق جنتهم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

- **الوحدة الرابعة:** (الآيات: ٣٤ إلى ٤١) ثم يقارن بين المسلمين والمجرمين، على طريقة القرآن في التهكم والسخرية: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

- **الوحدة الخامسة:** (الآيات: ٤٢ إلى ٤٧) وتناولت السورة الكريمة - بعد ذلك - القيامة ومشاهدها وأهوالها: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

- **الوحدة السادسة:** . (الآيات: ٤٨ إلى ٥٢) ختمت السورة الكريمة بتوجيه الأمر إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالصبر وعدم الوهن والضعف: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

الفصل الأول

المعجم

اهتم النقاد والبلاغيون منذ القديم بدراسة اللفظ القرآني، وبينوا ما تتميز به الألفاظ القرآنية من خصائص معجزة. لعل أهم ميزة يمكن الإشارة إليها هنا هي دقة الألفاظ، ومطابقتها للمعنى في السياق الذي تأتي فيه. يقول الجاحظ:

«وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله – تبارك وتعالى – لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في موضع القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يفتقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال» [٨].

وقد تأثر بنظرية الجاحظ هذه تلميذه ابن قتيبة؛ ففرق بين ألفاظ يبدو لأول وهلة أنها واحدة، مثل تفريقه بين «الكلام» و«القول»، فقد تبين له أن القول يقع فيه المجاز، مثل: قال الحائط؛ أي مال، وقالت الناقة. ولا يقال مثل هذا المعنى لـ «تكلم»[٩].

كما ذكر أبو بكر الباقلاني أن العقول الدارسة للقرآن تتيه في نهجه ونظمه، وتأليفه ورصفه «وكيف لا يكون كذلك: وأنت تحسب أن وضع «الصبح» في موضع «الفجر» يستحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً؟ وليس كذلك؛ فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرانها، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى – لو وضعت موضعها – في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار»[١٠].

في حين ذكر الخطابي أن للفظ القرآني ميزة خاصة، وأن كل لفظ يوضع في القرآن الكريم الوضع الخاص به. يقول:

«واعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها مترادفة متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ....والأمر فيها وفي ترتيبها عند العلماء بخلاف ذلك؛ لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها من صاحبتها في بعض معانيها، وإن تشتركا في بعضها»[١١] .

ووضع أبو هلال العسكري كتابه: «الفروق في اللغة» قصد بيان الفروق في الدلالة بين ألفاظ يبدو في الظاهر أنها مترادفة؛ فإذا جرى في اسمين على معنى واحد في لغة من اللغات، فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر. ويستدل على ذلك بما ذكره المبرد في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨). قال المبرد: فعطف الشرعة على المنهاج؛ لأن الشرعة لأول الشيء، والمنهاج لمعظمه ومتسعه. ويعطف الشيء على الشيء إذا كانا يرجعان إلى شيء واحد، وكان في أحدهما ما هو خلاف للآخر. أما إذا أريد بالثاني ما أريد للأول، فعطف أحدهما على الآخر مع ذلك، فإن العطف خطأ [١٢] .

أما الراغب الأصفهاني فقد ذكر في خاتمة كتابه «معجم مفردات ألفاظ القرآن» أنه سيتفرغ – بعد الانتهاء من تأليفه للمعجم – لتأليف كتاب خاص بالألفاظ المترادفة في القرآن الكريم. يقول:

«وأتبع هذا الكتاب – إن شاء الله تعالى ونسأ في الأجل – بكتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة، فبذلك يعرف اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواتها، نحو ذكره القلب مرة والفؤاد مرة والصدر مرة. ونحو ذكره تعالى في عقب قصة: «إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون»، وفي أخرى: «لقوم يتفكرون» وفي أخرى: «لأولي الألباب» وفي أخرى: «لذي حجر» وفي أخرى: «لأولي النهى»، ونحو ذلك مما يعده من لا يحق الحق

ويبطل الباطل أنه باب واحد، فيقدر أنه إذا فسر الحمد لله بقوله الشكر لله، ولا ريب بلا شك فيه فقد فسر القرآن ووفاه التبيان»[١٣].

لذلك سأقف في هذا الفصل عند ألفاظ السورة لأكشف من خلال الشروح والمقارنات عما في اللفظ القرآني من دقة في الاختيار وروعة في الأداء. ولا شك في أن السبيل الوحيد لفهم ذلك هو المقارنة؛ لأن اللفظ القرآني يفهم في ضوء نظرائه، ويفسر بعضه بعضاً.

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ :

يكتب «ن» في المصاحف بحرف واحد، وكان الأصل أن تكتب الحروف الثلاثة («ن» بعدها «و»، ثم «ن»)؛ لأن الكتابة تبع للنطق والمنطوق به. وينطق هذا الحرف ساكن الآخر؛ سكون الكلمات قبل دخول العوامل عليها، وكذلك قرئ في القراءات المتواترة. لذلك فهو حرف من حروف الهجاء؛ لأنه لو كان غير ذلك، لكان كلمة تامة الإعراب[١٤].

يعتبر هذا الحرف فاتح السورة؛ وفواتح السور بصفة عامة من المواضيع التي تضاربت حولها الآراء. لن أتعرض هنا للتفاسير والشروح المختلفة التي أعطيت لهذا الحرف، فهذا مجال واسع قد لا أخرج منه بطائل. لكننا سنركز على ما له علاقة بالمنظور الذي ندرس من خلاله السورة؛ المتعلق بالجوانب الأسلوبية واللغوية بشكل عام:

لقد تناول بعض القدماء هذه الظاهرة من الزاوية الفنية والبيانية:

- يرى صاحب «الإتقان في علوم القرآن»: أن الافتتاح بهذه الحروف كان «ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه أنزل بالحروف التي يعرفونها فيكون ذلك تعريفاً لهم ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله [١٥].
- وقريب من هذا الرأي ما أشار إليه ابن القيم من كونها: دليلاً على شرف الحروف وجلالها وعظمتها، باعتبارها من نعم الله على عباده حين أقدرهم على الكلام بها، وأنزلها على رسله [١٦].

أما بالنسبة إلى المحدثين، فنشير إلى رأي، يستقيم مع الوجهة الفنية و البيانية التي تعنينا في هذا المجال.. قبل ذلك نسوق هذه الملاحظات:

لقد بدأت هذه الفواتح في النزول منذ أوائل الوحي، لافتة النظر إلى سر الحرف مناط العلم والكتابة والقراءة. ثم كثرت السور المبتدئة بهذه الحروف في أواسط العهد المكي؛ حيث اشتد عتو المشركين ولجاجهم، و أفحشوا القول في حمل القرآن على السحر والشعر والافتراء والكهانة. ثم نزلت في الطور الأول آيتان من (سورة البقرة)، التي أفحمت المشركين وأخرست ألسنتهم بعجزهم عن أن يأتوا بسورة من مثله:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة٢٣ – ٢٤).

بعد هذا لم تنزل سورة مبدوءة بفاتح من فواتح السور، غير سورتي آل عمران والرعد. وبذلك انتهت السور المبدوءة بالفواتح؛ لأن قضية التحدي والمعاجزة قد حسمت. وكل سورة بدئت بحرف من الحروف المقطعة فيها احتجاج للقرآن الكريم، ودحض لمن جادلوا فيه وتقدير لنزوله من الله.

لذلك يمكن القول: لقد جيء بهذا الحرف؛ لأن فيه لفتاً واضحاً إلى سر الحرف في البيان القرآني المعجز. فالسورة تثير كثيراً من الجدل مع المشركين الذين كذبوا نبوة المصطفى – عليه السلام – وجحدوا معجزاته وقالوا إنها أساطير الأولين: «فكأن هذا تمهيد للمعاجزة التي تتحداهم أن يأتوا بمثله، واستدراجهم إلى أن تلزمهم الحجة، بأن يعرضوه على ما عرفوا من أساطير الأولين. وإن كلماته لمن الحروف التي عرفوها في عربيتهم، لغة الكتاب المبين»[١٧] .

«القلم» أصله من القلم؛ أي القص من الشيء الصلب كالظفر وكعب الرمح والقصب(...) وخص ذلك بما يكتب به وبالقدح الذي يضرب به وجمعه أقلام[١٨] .

وقد أوثر القسم بالقلم والكتابة للإيماء إلى أن باعث الطاعنين على رسول الله ﷺ واللامزين له بالجنون، إنما هو ما آتاهم به من الكتاب[١٩].

«يسطرون» – في رأي أغلب المفسرين – من «سطر» بمعنى «كتب كلمات عدة تحصل منها صفوف من الكتابة» [٢٠]. وهذه هي الدلالة التي تحملها بعض الآيات، مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ﴾ [٢١].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾[٢٢].

لكن استقراء اللفظ ومشتقاته في القرآن الكريم يحيلنا على دلالة أخرى لها علاقة بـ «الأسطورة»؛ وهي «كل ما لا نظام له وليس بشيء صحيح»[٢٣]. وهو معنى يمكن أن نستخلصه من قوله تعالى:

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٢٤].

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٢٥].

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٢٦].

ويبدو من الاستقراء أن هذا المعنى هو الغالب على اللفظ في القرآن الكريم. لذلك ترى عائشة عبد الرحمن أن «الأقرب عندنا أن يكون الضمير في يسطرون لمن كانوا ينقلون – من العرب – أساطير القدماء، ويحاولون أن يشبهوا القرآن الكريم بها»[٢٧]. وقد ذكر المؤرخون أن النضر بن الحارث «كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رستم السنديد، وعن اسفنديار، وملوك الفرس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتتبها كما اكتتبتها (...) وأنزل فيه ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٢٨].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾:

«النعمة» هي «الحالة الحسنة وبناء النعمة بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة»[٢٩].

وإذا كان الراغب قد أكد العلاقة بين «النعمة» و«النعيم»: «النعيم (هو) النعمة الكثيرة»[٣٠]، فإن التعبير بـ «نعمة» بدل النعيم في الآية، يصرفها إلى نعم الدنيا دون الآخرة؛ وذلك لأن استقراء ما في القرآن الكريم من هذا اللفظ، يؤكد أن الدلالة القرآنية للنعمة خاصة بالحياة الدنيا. أما النعيم فينصرف إلى نعم الآخرة خاصة.

من الآيات التي وردت في القرآن الكريم بالمعنى الأول:

- ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[٣١].
- ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾[٣٢].
- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٣٣].

فدلالة اللفظ تنصرف في الآيات كلها إلى الحياة الدنيا. وازن ذلك بقوله تعالى في الآيات التي ورد فيها لفظ «النعيم»:

- ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٣٤].
- ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[٣٥].
- ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[٣٦].

فدلالة «النعيم» في الآيات تنصرف إلى الآخرة.

«بمجنون»: أي به جنة. كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٣٧].

وقد وردت صيغة «مجنون» في القرآن الكريم في آيات عديدة، منها:

﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾[٣٨].

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴾[٣٩].

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٍ ﴾[٤٠].

وغالباً ما يقترن لفظ «الجنون» بأوصاف أخرى، مثل «الشعر» في قوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾[٤١].

أو الكهانة، في مثل قوله تعالى:

﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴾[٤٢].

أو السحر، في مثل قوله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾[٤٣].

كما اقترن «مجنون» بـ «معلم» في قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴾[٤٤].

يتبين في ضوء هذه الآيات أن لفظ «مجنون» يحيل هنا – بشكل عام – على الاتهامات التي كان يوجهها المشركون إلى الرسول ﷺ. وقد توسعت كتب السيرة في عرض صنوف الإذاية المعنوية التي كان الرسول ﷺ يتعرض لها من طرف المشركين.

لكن على الرغم من تعدد الأوصاف والنعوت التي كانت توجه للرسول ﷺ، فإن في السورة تركيزاً على صفة «الجنون»: ذكر هذا الوصف بطريقة مباشرة في موضعين، في مطلع السورة، في الآية التي نحن بصدد دراستها هنا. وفي خاتمتها، في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾.

كما ذكر أيضاً بشكل ضمني في قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾:

إذا كان الأجر يحيل على ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أم أخروياً، فإن الاستعمال القرآني يقصره على النافع دون «الضار»، عكس «الجزاء»، الذي استعمله في النافع والضار على السواء. مما ورد في القرآن الكريم عن اللفظ بمعناه الأول قوله تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٤٥).

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤٦).

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٤٧).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾(٤٨).

ومما ورد في القرآن الكريم من لفظ «جزاء»؛ بمعناه الإيجابي النافع قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ ﴾ (٤٩).

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٥٠).

أما «الأجر» في الحقيقة اللغوية، فيطلق على الجزاء المادي على عمل من الأعمال أو منفعة من المنافع، ثم استعير اللفظ لدلالة اصطلاحية إسلامية بمعنى الثواب (٥١).

من الآيات التي ورد فيها اللفظ بمعناه الأول في القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(٥٢).

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ (٥٣).

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ (٥٤).

أما الآيات التي ورد فيها اللفظ بمعناه الاصطلاحي الديني فكثيرة:

﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٥٥).

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٥٦).

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾(٥٧).

«ممنون» بمعنى موزون من هنا جاءت «المنة»، بمعنى النعمة ذات القيمة. وقد أول الزمخشري في الكشاف «ممنون» هنا بمعنى «مقطوع»؛ أي أجراً «غير مقطوع- كقوله غير مجذوذ- أو غير ممنون عليك به؛ لأنه ثواب تستوجبه على عملك وليس بتفضل ابتداء، وإنما ثمن الفواضل لا الأجور على الأعمال»(٥٨).

وقد رأى فيه بعض المعلقين على الكشاف في ذلك «سوء أدب» مع الله، ورسوله «إلى حد يوجب الحد»(٥٩). وقد استدل على ذلك بحديث للرسول – عليه الصلاة والسلام – ورد فيه:

«لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»(٦٠).

ويرى الراغب الأصفهاني أن «المن» هنا بمعنى غير محدود، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٦١) آل عمران (الآية: ٣٧).

ويلفت الأستاذ الطاهر بن عاشور نظرنا إلى ما في إيثار كلمة «ممنون» هنا من إيجاز تحقق من خلال الجمع بين معنيين، بخلاف قوله «عطاء غير مجذوذ» في سورة

هود؛ لأن ما هنا تكرمة الرسول ﷺ[٦٢]. أولهما، أن يكون مشتقاً من المعطي على المعطى: إذا عد عليه عطاءه وذكره له. وغير ممنون هنا؛ بمعنى ليس فيها أذى، والمن من الأذى. وثانيهما أن يكون «ممنوناً» مشتقاً من قولهم «من» الحبل، إذا قطعه؛ أي أجراً غير مقطوع عنك، وهو الثواب المتزايد كل يوم، أو أجراً أبدياً في الآخرة[٦٣].

أما الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقد حاولت التدبر في الآيات القرآنية التي جاء فيها لفظ «من»، وقد هداها ذلك إلى تسجيل لطيفة من اللطائف القرآنية. تقول:

«ونحتكم إلى القرآن الكريم، فيهدينا تدبر ما نقلنا من آيات المن، إلى أن الله – تعالى– يمن على عباده تفضلاً وتذكيراً بنعمه، وإنما يكره المن من البشر، حين يكون على وجه التعالي والمحاسبة»[٦٤].

وهذه الملاحظة الدقيقة سبق لصاحب «معجم ألفاظ القرآن» أن أشار إليها بقوله:

«المنة على وجهين: أحدهما أن يكون ذلك بالفعل (...) وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى. الثاني: أن يكون ذلك مستقبحاً فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة»[٦٥].

وفعلاً، فإن استقراء هذا اللفظ في القرآن الكريم يعطيه دلالة خاصة؛ ذلك أن القرآن الكريم عندما يستعمل مادة «منن» فإنها تكون دائماً مسندة إلى الله: بمعنى أن الله – سبحانه – هو الذي من حقه أن «يمن». أما عندما يأتي مسنداً إلى البشر، فهو يأتي على وجه النهي[٦٦]. لنلاحظ ذلك من خلال استقراء بعض الآيات:

-﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[٦٧]

-﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[٦٨]

- ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[٦٩]

هكذا نرى أن المن فيها مسند إلى الله.

في الآيات التالية نجد «المن» مسنداً إلى المخلوقين، لكن نجد فيها نهياً أو نفياً:

- ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[٧٠].
- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٧١].
- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٧٢].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[٧٣].

ورد «المن» في القرآن الكريم بمعنى إطلاق بغير فدية في قوله تعالى:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[٧٤].
- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ :

الخلق: مفهوم الخلق عند ابن كثير هو القرآن[٧٥]. مصداقاً لحديث السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن».

يمكن الرد على هذا الرأي بكون الآية مبكرة؛ إذ المشهور أنها السورة الثانية في ترتيب النزول بعد سورة العلق[٧٦]. لذلك لم يكن قد نزل من القرآن ما يمكن أن تعرف به الأخلاق القرآنية. ونقل الإمام الطبري أقوال من فسره بالدين: «إنك على دين عظيم وهو الإسلام»[٧٧].

وليس في القرآن الكريم كله، ما يؤنس إلى استعمال الخلق بمعنى الدين[٧٨].

ويبدو أن «الخلق» يرتبط هنا بالأصول اللغوية لهذا اللفظ، كما أشار إليها الراغب الأصفهاني، في علاقتها بـ «الخلق»؛ أي «إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء»[٧٩]. وكأن السجايا والفضائل أصلية فيه، ومن طباع نفسه، على نحو ما جاء في قوله

تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٨٠]. وعلى نحو ما عبر عنه الرسول الكريم في الحديث: «أدبني ربي فأحسن تأديبي». وشهدت عليه خديجة، بعد أن أفضى إليها بما رأى وما سمع، من أمر الوحي الأول:

«... والله لا يخزيك أبداً، إنك لتصل الرحم وتؤدي الأمانة وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»[٨١].

إذن، فالفضيلة أصيلة في طبع الرسول الكريم؛ أي كأنه مجبول عليها، ومدعمة من جهة الخلق «والخلق والخلق في الأصل واحد [...] لكن خص الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر وخص الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[٨٢].

عظيم: أصله اللغوي من عظم الشيء، أي كبر عظمه، ثم استعير للدلالة على كل شيء كبير، وشاعت هذه الاستعارة حتى ساوت الحقيقة، سواء كان هذا الشيء، اسم ذات كما في مثل قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٨٣]

أم اسم معنى، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وسواء كان محسوساً، مثل:

﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٨٤].

أم مجرداً، مثل قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٨٥].

وبذلك يكون الخلق العظيم هو «الخلق الأكرم في نوع الأخلاق وهو البالغ أشد الكمال في طبع الإنسان [...] فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن»[٨٦].

وقد استعظم خلقه لفرط احتماله لقومه، ومخالفته ومداراته لهم، وخير ما يجلي هذا الشرح اللغوي للفظ «الخلق العظيم» عند رسول الله، ما قاله عمه أبو طالب في

خطبة زواج الرسول الكريم من خديجة:

«أما بعد فإن محمداً ممن لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً»[٨٧].

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ :

الأصل في التبصر من العين الباصرة. لكن، عادة يقال «البصر» للجارحة الناظرة، ويقال لقوة القلب وعمق النظرة «بصيرة»[٨٨]. وقد فسر هذا اللفظ بالمعنيين معاً (الأصلي والمجازي)، فهناك من يرى أن فعلي «تبصر ويبصرون» بمعنى البصر الحسي؛ أي «سترون رأي العين»[٨٩]. في حين يرى آخرون، أن فعل «أبصر» هنا بمعناه المجازي؛ أي «ستعلم ويعلمون»[٩٠].

ونرجح هنا، التفسير البياني الذي قدمته عائشة عبد الرحمن، باعتباره ينسجم مع ما نطمح إليه من تأكيد الجوانب الأسلوبية والأدبية في التعبير القرآني. تقول:

«ونطمئن إلى أن البصر في آية القلم، بمعنى النظر الثاقب المميز والمعرفة المدركة»[٩١].

وقد وردت في القرآن الكريم آيات بالمفهوم الأول، منها قوله تعالى:

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[٩٢].

أما الدلالة الاصطلاحية المجازية، التي تتعلق بالنفاذ والعمق والإدراك الشامل للمعاني القريبة والبعيدة، فيمكن التمثيل لها بالآيات التالية:

﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾[٩٣].

﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾[٩٤].

﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾[٩٥].

أما أصل الفتنة في المعجم، فهي: «فتن: أدخل الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته»[٩٦].

ثم استعير اللفظ لدلالة أخرى مثل الجنون، كما هو الحال في الآية. أو لدلالات أخرى كالاختبار. من أكثرها شيوعاً في القرآن الكريم – فيما يذكر الراغب الأصفهاني– الابتلاء في الشدة. يقول:

«وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً»[٩٧].

والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾[٩٨].

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [٩٩].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[١٠٠].

﴿ وَقَتَلَتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾[١٠١].

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾[١٠٢].

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾[١٠٣].

وفي تعبيره «بالمفتون» مجاز مرسل؛ لأن الأصل: «بأيكم الفتنة»؛ وقد أطلق اسم الفاعل على المصدر، وتسمى هذه العلاقة بالتعالق الاشتقاقي.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن «المفتون» هنا بمعنى «المجنون»[١٠٤]، وذهب آخرون إلى أن المفتون بمعنى «الابتلاء بالضلال»، تأكيداً للأصل اللغوي الذي تمت الإشارة إليه سابقاً. ويرى آخرون أن حمل الفتنة على الضلال أقرب إلى حس البيان،

كما أنه أقرب إلى سياق الآية بعده: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[١٠٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ :

«ضل»: الأصل اللغوي لهذا اللفظ من فقدان الطريق، ثم جاء الاستعمال المجازي لهذا اللفظ، الذي يعني «العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية» [١٠٦]، وجاء هذا الاستعمال ملحوظاً فيه الأصل اللغوي الحسي. لذلك نصادف في الاستعمال القرآني لهذا اللفظ أنه يقترن أحياناً بالسبيل:

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[١٠٧].

كما يقترن أحيانا بالإبصار أو العمى، وهما مصطلحان يحيلان على الأصل اللغوي الحسي: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ (النمل : ٨١).

وقد يحتفظ الاستعمال القرآني بالمعنى اللغوي الحسي، كما في الآية التي سنأتي على ذكرها في قصة أصحاب الجنة، في تحليل هذه السورة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ (سورة القلم). أي ضللنا الطريق. لكن الغالب على الاستعمال القرآني لمصطلح «ضل» هو الذي يكون بمعنى الكفر، وهو الذي يتبادر إلى الذهن عادة حين نستعمل لفظ «ضل».

وقد شرح الراغب مصطلح «ضل» شرحاً يستوعب هذين المعنيين الحسي والمعنوي بقوله: «الضلال ترك الطريق المستقيم عمداً كان أو سهواً، قليلاً كان أو كثيراً»[١٠٨].

وقد استعمل اللفظ في الآية التي نحن بصددها في معناه الديني في رأي أغلب المفسرين:

يقول الطبري: «إن ربك يا محمد هو أعلم بمن يضل عن سبيله، كضلال كفار قريش عن دين الله»[١٠٩].

يقول ابن كثير: «... يعلم الحزب الضال عن الحق»[١١٠].

ويقول القرطبي: «أي إن الله هو العالم بمن حاد عن دينه»[١١١].

«المهتدين» من الهدي وهي الصخرة الناتئة في الماء يؤمن بها العثار، لكن غلب عليها الاستعمال الذي يكون بمعنى الإيمان الذي هو ضد الكفر.

ويمكن الإشارة هنا إلى بعض الفروق اللغوية في الاستعمال القرآني للفظ «الاهتداء» و«الهداية». فقد خص اللفظ الأول بما يتحراه الإنسان عن طريق الاختيار، سواء في الأمور الدنيوية، نحو قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[١١٢].

أم في الأمور الأخروية، نحو قوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[١١٣].

ويقال المهتدي للذي لم يقتد بعالم سابق، مثل:

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[١١٤].

أي أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم. إن الاهتداء هنا «يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية ومن الاقتداء وزمن تحريها»[١١٥].

أما الهدي والهداية فقد خصه الله – عز وجل – بما تولاه، وأعطاه هو دون ما هو إلى الإنسان. نحو:

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[١١٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١١٧].

لذلك يرى الراغب أن الهداية «دلالة بلطف [من الله]»[١١٨].

ويبقى لفظ «المهتدين» في الآية التي نحن بصددها بمعناه الديني، في دلالته على

ما يقابل الكفر:

فهو عند الطبري: أعلم بالمهتدين بمعنى «إن ربك هو أعلم يا محمد بك، وأنت المهتدي» [١١٩]. وعند ابن كثير: أعلم بالمهتدين بمعنى: «يعلم الحزب الضال عن الحق»[١٢٠]، وعند القرطبي بمعنى «الذين هم على الهدى»[١٢١].

ولم يشذ عن هذا الفهم إلا الزمخشري الذي أول اللفظ السابق تأويلاً ينسجم مع المذهب الاعتزالي الذي يعلي من شأن العقل والتعقل: «أعلم بالمهتدين بمعنى «أعلم بالعقلاء وهم المهتدون»، على وجه التقابل مع «المجانين على الحقيقة وهم الذين ضلوا عن سبيله»[١٢٢].

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ :

جاء فعل الطاعة في سياق النهي: فلا تطع المكذبين. الطاعة لغة قبول ما يبتغى عمله. وقوع النهي هنا يعم في الظاهر كل إجابة لطلب منهم، المراد بها هنا المصالحة والملاينة. كما في قوله تعالى:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾. (الفرقان: ٥٢).

تلقي الألفاظ ظلالاً خاصة على الآية: هناك لفظ «ودوا» الذي يكشف عن حقيقة الرغبة الجامحة للكفار في الإدهان والمداراة، والأهم من ذلك أن يومئ اللفظ إلى نوع من السخرية والتهكم بهؤلاء. وتلك طريقة القرآن الكريم في استعمال هذا اللفظ:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[١٢٣].

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[١٢٤].

يحس القارئ ضمنياً أن رغبتهم تلك لن تحصل، وفي ذلك ما فيه من سخرية وزراية وتهكم.

الإدهان في أصله اللغوي من الدهن وجمعه أدهان. يقول تعالى :

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ (١٢٥).

لكنها هنا تحمل دلالة مجازية بمعنى المداجاة والخداع. وقد ذكر الراغب أن الإدهان «جعل عبارة عن المداراة والملاينة، وترك الجد(١٢٦) .

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

الصورة في تراكيبها المختلفة أشبه بصورة «كاريكاتورية». فالأوصاف استعيرت من بيئة خاصة بالحيوان وما يحيط به. ثم إن فيها تركيزاً على بعض الجوانب التي كانت تحظى بالعناية والتقدير في المحيط الجاهلي.

لنتأمل ذلك من خلال شروح المفسرين:

فالهماز من الهمز، «وأصله في اللغة الضرب طعناً باليد أوالعصا أو نحوهما، ثم استعير للذي ينال بلسانه»(١٢٧).

العتل: «سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم فقال: هو الشديد الخلق المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام والشروب الظلوم للناس» (١٢٨).

الزنيم: «قال الراغب: زنيم من القوم وليس منهم؛ أي النسب إلى قوم وهو معلق بهم لا منهم تشبيهاً بالزنمتين من الشاة وهما المتدليتان من أذنهما ومن الحلق.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾:

يأتي التعقيب البديع الذي تتخلله حركة طريفة: حين يوسم هذا الإنسان بسمة الذل والهوان تبقى شارة في وجهه أبد الدهر. وهو مشهد هين لا يعادل خسته وضعته إلا المشاهد الأخرى السابقة، التي تصوره وهو ينشر الإذاية بين الناس.

الوسم للإبل ونحوها، تجعل لها سمة على أنها ملك لقبيلة أو مالك: «فالوسم تمثيل

تتبعه كناية على التمكن منه وإظهار عجزه»[١٢٩].

الخرطوم استعارة للأنف، وذلك استهانة بصاحبه واستهجاناً له؛ لأنه لا يستعمل إلا للفيل والخنزير، وقد استعير هذا اللفظ كما يستعار لفظ المشافر مثلاً للشفاه والأظلاف والحوافر للأرجل. وكلما كان الحيوان أخبث وأقبح، كانت له الاستهانة والاستقباح أشد وأكبر.

لا يخفى أيضاً ما في اختيار هذا الموضع – وهو الأنف – من إهانة؛ لأن الأنف أكرم موضع في الوجه لارتفاعه عليه، لذلك جعلوه مكان العزة والحمية واشتقوا منه الأنفة...

وقالوا في الذليل جذع أنفه رغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم على غاية الذلة والمهانة [١٣٠]. ثم لاحظ أيضاً ما في هذه الأوصاف من إيغال ومبالغة. على أن هذه الأوصاف تكاد تنتهي في التحليل إلى معنى واحد.

بالإضافة إلى ذلك لا يمكن إغفال ما في هذه المشاهد من حركة. فالأوصاف كلها أوصاف حركية؛ فهو «حلاف» يطلق لسانه بالحلف الكاذب، ولا يخفى أيضاً ما في هذه الصفة من ذلة؛ لأن الذي يكثر من الحلف هو الذليل الذي يلتمس السبل لإرضاء الناس رياء ونفاقاً، تماماً كما هجا المتنبي مهجوه[١٣١].

وتراه أصغر ما تراه ناطقاً ... ويكون أكذب ما يكون ويقسم

والذل يظهر في الذليل مودة ... وأود منه لمن يود الأرقم

وهو «همان»: أسلوبه في المواجهة هو أسلوب الضعفاء الجبناء الذين يعملون، في الخفاء؛ أسلوب اللمز والهمز والغمز.

ثم هو إلى ذلك، ينفث سمومه الخبيثة لينشر الضغينة بين الناس: مشاء بنميم. ثم هو لا يكتفي بكل ذلك، إنما هو أيضاً يمنع أي سبيل للخير.

مجمل القول، الصورة بعامتها تموج بالحركة، وتضطرب بما يتخللها من مشاهد وحركات يشترك في أدائها اللسان والقول والفعل.

لكن هذا التوبيخ قد لا يكفي في زجر هذا الإنسان، لذلك تأتي القصة لتعطي درساً عن عاقبة الجحود والبطر بالنعمة.

القصة[١٣٢] في إطارها العام صورة فنية رائعة، وحتى لا تضيع هذه الفنية من خلال التحليل الجزئي الجاف، يلزم عرضها كما وردت في سياقها لتظهر مختلف التموجات والحركات التي تضطرب بداخلها:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾:

لقد استقر رأي أصحاب الجنة على أن يجنوا ثمارها في الصباح الباكر، ويمنعوا أي حق لمسكين.

فلنترك هؤلاء في قرارهم، ولننظر ماذا يقع في بهمة الليل، بعد أن خلا منهم مسرح الأحداث: حركة خفية تتم خلسة في الظلام.

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾ .

القوم لم يشعروا بذلك ولا يزالون مصممين على تنفيذ ما قرروا، لذلك تنادوا في الصباح الباكر:

﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ .

إن المنظر قد يثير الضحك، ولكن ليمسك النظارة ألسنتهم، حتى لا ينبهوا أصحاب الجنة إلى ما أصاب جنتهم، وليكتموا ما ينبعث في نفوسهم من ضحكات وهم يشاهدون المخدوعين وهم يتنادون متخافتين، ليكتموا ذلك.

بل ليعلنوها؛ فها هي السخرية العظمى قد وقعت: ها هي المفاجأة قد حصلت، فليضحك المشاهدون كما يشاؤون :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾.

قد ضللنا الطريق، ما هذه جنتنا اليانعة.

بل هي جنتكم. هذا هو الخبر اليقين:

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ .

قد وقت الكارثة إذن، فبدأ تحديد المسؤوليات:

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ .

وبعد أن فات الأوان ولات حين مناص :

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ .

ويتنصل كل شريك من المسؤولية، ويلقي بالتبعة على الآخرة:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ .

لكن ها هم أخيراً يعترفون بالخطيئة، ويتضرعون إلى الله أن يعوضهم عن الجنة الضائعة جنة أخرى(١٣٣):

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

القصة إذن صورة بيانية رائعة. لكن حتى تتضح لنا هذه الصورة يلزم أن نقف قليلاً عند الألفاظ، لملاحظة ما تحمله من دقائق ومجازات وإشارات بيانية بديعة:

التشبيه في الآية: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ من نوع التشبيه التمثيلي؛ لأنه منزوع من تعدد أمرين أو أمور (كما يعرفه القزويني) (١٣٤).

الابتلاء، الامتحان، يمكن فهم ذلك باستقراء بعض الآيات التي ورد فيها اللفظ :

﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١٣٥).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾(١٣٦).

الصرم في «ليصرمنها» غاية في الدقة وحسن الاختيار؛ إذ فيه تصوير لمعنى الجحود والأثرة التي استحكمت في قلوب (أصحاب الجنة). فالتعبير بالصرم يدل على الاستئصال التام من الجذر، عوض التعبير بـ «القطع» مثلاً، الذي قد يكون فيه

بعض التراخي.

ثم إنهم اختاروا لتنفيذ فعلتهم الشنيعة تلك وقتاً معيناً وهو الصباح: «إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين».

وشدة طمعهم جعلتهم «لا يستثنون»: فلم يقولوا إن شاء، أو إن رغبتهم في الانفراد بخيرات الجنة لم تجعل لاحتمال ترك شيء للآخرين[١٣٧].

«الطائف» هو الذي يطوف في الليل، ولا يخفى ما يلقيه هذا اللفظ على السياق؛ ذلك أنه يلاحظ فيه معنى العظمة والقوة.

«كالصريم»: الصريم قيل كقطعة من الرمل، وقيل كالشجرة المصرومة، وقيل كالليل[١٣٨].

ولعل في «إيثار كلمة الصريم هنا لكثرة معانيها وصلاحية جميع تلك المعاني لأن تراد في الآية»[١٣٩].

الحرث: «شق الأرض بحديدة ليوضع فيها الزريعة أو الشجر وليزال منها العشب»[١٤٠].

واللفظ هنا مجازي للدلالة على الحقل (أو الجنة بحسب لفظ الآيات)، وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم الحرث بهذه الدلالة المجازية:

﴿ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾[١٤١].

﴿ وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾[١٤٢].

إن سلوك أصحاب الجنة الرامي إلى الانفراد بخيرات «الجنة» قد انعكس حتى على طريقة كلامهم؛ فهم «يتخافتون»: أي يتكلمون بصوت منخفض جداً، يصل إلى

مستوى الهمس. كي لا يشعر بهم أي «مسكين»، يمكن أن ينغص عليهم فرحتهم. الحرد: «الحرد» يطلق على «المنع» وعلى «القصد القوي»؛ أي السرعة، وعلى «الغضب». يقال حردت السنة، إذ لم يكن فيها مطر، وحردت الناقة: إذ لم يكن لها لبن[١٤٣] ولا يخفى ما في اللفظ من جفوة ونفور.

لفظ «قادرين» في قوله: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ يلقي على الآية ظلالاً خاصة. إذ نلاحظ فيه بعض التهكم؛ فكأن اللفظ يومئ ضمنياً إلى أنهم لن يقدروا على ذلك. الملاحظة نفسها يمكن تسجيلها على اللفظ «أقبل» في: «أقبل بعضهم على بعض يتلاومون»: إذ في اللفظ تمثيل لحقيقة وضعهم، وما فيه من مجابهة بالكلام الذي يوجهه بعضهم لبعض وجهاً لوجه، وهو وضع يكادون يتشابكون فيه الأيدي[١٤٤].

قبل هذا اللفظ الأخير، هناك لفظ «أوسطهم» ويعني به «أحسنهم وأفضلهم»[١٤٥].

والوسط في المصطلح القرآني غالباً يرمز إلى الخير والحسن :

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[١٤٦].

- ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[١٤٧].

صفوة القول، لا يخفى على القارئ ما في ألفاظ القصة من دقة في الاختيار وعمق في البيان، وتلك هي دائماً خصائص الألفاظ القرآنية في القصة. وهذا ما سبق أن أشار إليه أحد الباحثين الذين درسوا ألفاظ القصة القرآنية. يقول الدكتور محمد السيد حسين مصطفى:

«من خصائص الأسلوب القصصي القرآني الدقة التامة في انتقاء الألفاظ وحسن اختيارها (كذا) ووضعها في موضعها وهو ما يسمى (إصابة المعنى)» [١٤٨].

في الآية الثانية تشبيه مقلوب: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

لأن الأصل: أفنجعل المجرمين كالمسلمين؟ لكن قلب التشبيه حتى يكون أبلغ. وقد

جاء هذا التشبيه في تمام روعة الأداء، كما هو الشأن دائماً في التشبيهات المقلوبة التي ترد في القرآن الكريم. وذلك بشهادة ابن جني الذي يقول في هذا النوع من التشابيه (ويسميه غلبة الفروع على الأصول):

«هذا فصل من فصول العربية طريف، نجده في معاني العرب كما نجده في معاني الإعراب، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة»[١٤٩].

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾:

الاستفهام في الآيات على طريقة ما يسميه الجرجاني «تشبيه التمثيل»؛ ذلك أنه قد لا يكون هناك – أصلاً – من يدعي أن له كتاباً يدرس فيه ويتخير منه، وقد لا يكون هناك من يعتقد أن له عقوداً موثقة عند الله، بل جيء بهذه الأساليب نكاية بهم وسخرية منهم.

لا يخفى أيضاً ما في هذه الآيات من تدرج: فمن الاستفهام الأول في الآيات السابقة: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾. وهو استفهام عام، فيه الكثير من الاستغراب والتعجب. إلى الاستفهام الثاني، الذي يمثل مستوى أدق من الأول؛ لأن الاستغراب فيه يتعلق بالأحكام التي يفترض أنهم يطلقونها: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. ثم المستوى الرابع وهو يتعلق بالدراسة والتخير: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾...

أما الألفاظ فهي الأخرى لا تخلو من حسن ودقة في الاختيار:

«أيمان بالغة» استعيرت لمعنى عهود مغلظة [١٥٠].

ولكلمة «بالغة» دلالتها في هذا المقام، ففيها تشبيه بالشيء البالغ إلى نهاية سيره، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

أيضاً لا يخفى ما تومئ إليه كلمة «زعيم» من سخرية وتهكم. بل أكاد أجزم بأن لفظ «زعيم» ومشتقاته يحمل في القرآن الكريم في الغالب هذه الدلالة؛ منها قوله تعالى على سبيل المثال لا الحصر:

﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[١٥١].

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾[١٥٢].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[١٥٣].

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾:

الآيات وصف لمشهد من مشاهد القيامة، وهي مشاهد متحركة محسوسة وبارزة وشاخصة وتلك هي دائماً طريقة القرآن الكريم في وصف اليوم الآخر. فمشاهده «منتزعة من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة ولا خطوط جامدة ، مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانيات والخواطر والخلجات. وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية أو في شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة»[١٥٤].

وقد حققت الآيات هذه الفنية العالية بما نلاحظه في الأسلوب من مجازات: ففي خشوع الأبصار استعارة مكنية بديعة: «خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة».

يلاحظ الشيء نفسه على تعبيره بـ «ترهقهم ذلة»؛ فقد جعل «الذلة» شيئاً متحركاً محسوساً يرهق الكفار. ذلك ما يسميه سيد قطب بتجسيم المحسوسات [١٥٥].

في الآيات مسألة طالما وقف عندها المفسرون. ولكونها ذات علاقة بالحقيقة والمجاز في السورة يلزم الوقوف عندها بإيجاز.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ :

ما المقصود بكشف الساق؟ هل هي ساق الرحمن؟ ثم هل سجود هؤلاء على وجه الحقيقة، أم أن وراء الألفاظ كناية ما؟

لقد طرحت هذه الأسئلة منذ القديم، واختلفت فيها الإجابة والشروح.

وعموماً، فقد انقسم المفسرون في هذه المسألة إلى قسمين:

فريق يأخذ بظاهر الآية: فالرحمن يكشف عن ساقه، ويدعو الكافرين إلى السجود لكنهم لا يستطيعون ذلك؛ لأن: «أصلابهم تعقم؛ أي ترد عظاماً بلا مفاصل، لا تنثني عند الرفع والخفض»[١٥٦].

أو لأن «فقار ظهورهم تدمج فتصير فقرة واحدة»[١٥٧]. أو لأنه تدمج أصلابهم «حتى تكون عظماً واحداً كأنها صياصي البقر»[١٥٨] على حسب الاختلاف في التعليل.

ويعززون هذا الفهم بما ورد في حديث طويل لابن مسعود، نقتطف منه ما يهمنا في هذا المجال: «... يكشف الرحمن عن ساقه فأما المؤمنون فيخرون سجداً، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً واحداً كأن فيه سفافيد».

أما الآخرون فيحملون التعبير على الكناية؛ لأن ذلك ليس بدعاء لهم على وجه الأمر بل هو توبيخ وتبكيت لهم من حيث تركوا السجود وهم متمكنون، ولذلك قال بعده:

« وقد كانوا يدعون إلى السجود وهو سالمون» [١٥٩]. على حد تعبير القاضي عبد الجبار، وقد استأنسوا في حمل الأسلوب على هذا المعنى بما ورد في التراث الشعري مما يشبه هذا الأسلوب في حالات الروع والهزيمة: من كشف الساق والإبداء عن الخدام (جمع خدمة وهو الخلخال)، وتشمير المخدرات عن سوقهن في الهروب. مثل قول حاتم بن عبد الله الطائي[١٦٠]:

أخو الحرب أن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

ويقول الحجاج[١٦١]: (الرجز المشطور):

قـد شمرت عن ساقها فشدوا

وجدت الحــرب بكم فجدوا

وقال عبد الله بن قيس الرقيات[١٦٢] (الخفيف) :

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عـن خـدام العقيلـة العـذراء

من هنا نلاحظ أن هذا التعبير ليس غريباً عن حس اللغة العربية. لكن مع ذلك لا يمكن الجزم بصحة هذا الرأي، ولا سيما أن الحديث الذي ذكرناه في السابق – وهو الحديث الذي اعتمد عليه أصحاب الرأي الأول – « ذكر في ثاني أصح الكتابين» بعد كتاب الله، وهو صحيح مسلم[١٦٣] – (مع اختلاف يسير في الرواية)..

يمكن أن نترك هذا التحليل الجزئي للصور البلاغية، ونركز على الصورة الكلية التي تقدمها الآيات السابقة حول مشاهد اليوم الآخر: هكذا يبرز للخيال مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة. فهؤلاء الذين كانوا يدعون إلى السجود في الدنيا فلا يبالون، زعماً منهم بأنه ليس هناك يوم آخر. هؤلاء يدعون الآن، وقد شمر عن الساق والساعد، جد الجد، يدعون إلى السجود تبكيتاً لهم وتوبيخاً. وقد فات الأوان عن استدراك ما كان، فلا يستطيعون السجود؛ إما للهول الذي يغشاهم ويعجزهم عن الحراك، وإما لفوات الوقت المناسب. وهم منكوسو الرؤوس، خاشعون خشوع الذلة، بعد ما كانوا يأبون خشوع العبادة. فالجزاء إذن وفاق على ما كانوا يصنعون.

وهول الموقف هنا هول نفسي حسي، نستشفه من الظلال النفسية التي يلاقيها هؤلاء الأحياء، الذين، يواجهون التبكيت والتوبيخ، ويطلب إليهم حيث لا يستطيعون، ما كانوا يأبونه قادرين[١٦٤].

وهنا وقد شخص الموقف حتى لكأنه واقع مشهود، يتوجه بالخطاب إلى الرسول الكريم الذي كان يلقى العنت من المكذبين:

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ :

في الآيات تهديد مرعب، تحقق بسبب الفجائية التي ورد بها النص. فبينما الخيال مشدود إلى تمثل هذا الكرب العظيم الذي يستعرضه السياق يأتي الإنذار المفاجئ:

«فذرني ومن يكذب بهذا الحديث». هذا بالإضافة إلى ما في هذه الآية من «بليغ الكناية»[١٦٥] على حد تعبير صاحب محاسن التأويل.

ثم لاحظ أيضاً ما تلقيه كلمة «سنستدرجهم» من ظلال على معنى الآية . فهي تسم النص بحركة متخيلة ممتدة، يستدرج خلالها هذا المخلوق درجة فدرجة ليأخذه الله بعد ذلك من حيث لا يحتسب.

ثم إن في التعبير بالكيد استعارة بديعة للدلالة على إحسان الله بقوم مع إرادة السوء بهم «لمشابهة فعل الكائد من حيث تعجيل الإحسان وتعقيبه بالإساءة»[١٦٦]. ويصدق هنا ما ذكره سيد قطب في كتابه «مشاهد القيامة في القرآن»:

«لقد عني القرآن بمشاهد يوم القيامة: البعث والحساب، والنعيم والعذاب؛ فلم يعد ذلك العالم الآخر الذي وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر، موصوفاً فحسب، بل عاد مصوراً محسوساً، وحياً متحركاً، وبارزاً شاخصاً(....) هناك سمة واحدة شاملة لتلك المشاهد: إنها مشاهد حية منتزعة من عالم الأحياء. مشاهد تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات، والخواطر والخلجات، وترتسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، وفي شخوص من الطبيعة تخلع عليها الحياة، ثم تفترق السمات بعد ذلك في شتى المشاهد. فلا تخل بهذه السمة الأصيلة الشاملة لجميع المشاهد» [١٦٧].

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾:

الاستفهام في الآيات تمثيلي. وتتكرر الملاحظة نفسها التي سجلناها عن هذه الظاهرة في الأساليب الاستفهامية السابقة.

«المغرم» الذي عليه غرامة.

والمثقل: «الذي حمل عليه شيء ثقيل وهو مجاز في الاشتقاق»[١٦٨].

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾:

«مكظوم» من كظم الشيء بمعنى سده، (مثل كظم الباب، كظم القربة، أي سدها).

ولعل المعنى اللغوي أخذ دلالة اصطلاحية، بمعنى حبس النفس، بملحظ من العلاقة المجازية بين الاستعمالين.

واللفظ فيه تصوير بديع للحالة النفسية التي كان عليها «يونس» وهو ببطن الحوت، قبل أن تتداركه نعمة الله. وفي التعبير «بالنعمة» للدلالة على معنى الإنقاذ والرحمة ما يوحي بنوع من التعظيم والتفخيم لهذا العمل. وما أكثر ما يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم في مواقف التذكير :

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (١٦٩).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١٧٠).

ما العلاقة بين هذه الآيات وحالة الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

قد لا أخطئ الحقيقة إذا قلت: إن القصة تصوير حسي لحالة معنوية كان يعيشها الرسول ﷺ . كيف ذلك؟

إن يونس – عليه السلام – كان في ضيق مادي؛ لأنه يعاني داخل بطن الحوت. والخلاص من هذا الضيق جاءه عن طريق التضرع إلى الله؛ لأن الله تعالى يقول: «إذ نادى وهو مكظوم». أما الرسول ﷺ فهو الآخر كان في ضيق، لكن ضيقه ضيق نفسي. وذلك ما يوحي به الجو العام للسورة. وكما جاء المدد الإلهي لنبي الله «يونس» بالصبر والتضرع، فإن الخطاب في القصة يتوجه – منذ البداية – إلى الرسول ﷺ بوصفه المعني بهذه القصة، ويلفت نظره إلى هذه الوسيلة: «فاصبر لحكم ربك». هذا ما يلوح من خلال تدبر العلاقة بين القصة والسياق الذي عرضت فيه.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿٥٢﴾

لفظ «يزلقونك» فيه تشخيص حي لحقيقة نظراتهم. فقد جعل: «الإزلاق بأبصارهم على وجه الاستعارة المكنية، شبهت الأبصار بالسهام ورمز إلى المشبه به بما هو من روافده وهو مفعول يزلقونك» [١٧١].

الفصل الثاني
التركيب

لا يخفى ما لعلم النحو من فضل في الكشف عن المعاني؛ وذلك لأن «الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه»[١٧٢]. على حد تعبير عبد القاهر الجرجاني.

كما ذكر ابن خلدون أن «كل معنى لابد أن تكتنفه أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المقصود؛ لأنها صفاته، وتلك الأحوال في جميع الألسن، أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما اللسان العربي، فإنما يدل عليها بكيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم وتأخير أوحذف أوحركة إعراب، وقد يدل عليها بالحروف غير المستقلة، ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات، كما قدمنا. فكان الكلام العربي لذلك أوجز، وأقل ألفاظاً وعبارة من جميع الألسن، وهذا معنى قوله ﷺ: أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض النحاة إني أجد في كلام العرب تكراراً قي قولهم زيد قائم وإن زيداً قائم وإن زيداً لقائم والمعنى واحد فقال له: إن معانيها مختلفة؛ فالأول لإفادة الخالي الذهن من قيام زيد والثاني لمن سمعه فتردد فيه، والثالث لمن عرف بالإصرار على إنكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الأحوال» [١٧٣].

لقد جاء القرآن الكريم إلى دنيا العرب، فاعترفوا حين سمعوه بأنهم لم يعرفوا له مثيلاً ولا شبيهاً، ولا نوعاً يدانيه. وقد قاسوه على ما عرفوا من الأنواع الأدبية فاستبعدوا البعد كله أن يكون فيه شبه لما عرفوا، فأقروا بأنه جنس من الكلام غير مسبوق؛ إذ ما من وحدة تعبيرية في القرآن إلا اجتمع لها الكمال في مفرداتها وأدواتها وتراكيبها وصورها وترتيبها اجتماعاً محكماً يتجاوز الإمكان العقلي لدى الإنسان.

وقد شكلت هذه الخصائص مجتمعة جانباً من «وحدة الكمال السرمدي» [١٧٤]. وهي ما نفتقده في آثار الأدباء العباقرة عموماً؛ ذلك أن أي عبقري تتفاوت روائعه فيما بينها تفاوتاً غير قليل، من حيث الموضوع والتعبير معاً.

لكن ما يهمنا في هذا المجال، ليس هو الكشف عن المعاني النحوية التي تحملها التراكيب فقط، بل الهدف الرئيس هو الوقوف عند القيم الفنية والجمالية لهذه التراكيب. عند هذا المستوى تفصح التراكيب النحوية عن قيم مستقلة ومعان ثانوية، بالإضافة إلى ما تحمله من أفكار، وما توصله من معان.

لذلك سنتناول في هذا الفصل بالدراسة والتحليل التركيب النحوي للسورة. النحو المقصود هنا هو الذي يتصل بالناحية الجمالية والفنية. وذلك بحسب المباحث المعروفة في نظرية «علم المعاني» في اللغة العربية: من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وفصل ووصل، وتعريف وتنكير... إلخ. كما سنقف عند بعض الاختلافات التي خاض فيها النحاة والمفسرون حين يتعلق الأمر بمشكلة نحوية ما.

و لاشك في أن دراسة النصوص القرآنية على هذه الطريقة ستكشف من الدقائق واللطائف ما يقر بإعجاز النص القرآني.

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾:

قرأ بعض القراء الآية بالوقف: «نٓ والقلم»، في حين قرأها أغلبهم بالوصل. الذين قرؤوا الآية بالوقف اعتبروا النون حرف هجاء، وحكمه أن ينفصل عما بعده، فبنى الكلام على الوقف لا على الوصل. والآخرون بنوا الكلام على الوصل[١٧٥]. القسم في السورة بشيئين: «القلم» و «ما يسطرون»؛ أي ما يكتبه الكفار من أساطير.

ما وجه التعظيم في المقسم به؟

هناك اختلاف بين المفسرين في تعليل ذلك. على أن لهذه المشكلة جانباً بيانياً سنتعرض له فيما بعد.

القلم هنا مقسم به في رأي أغلب المفسرين، وقسم الله – تبارك وتعالى – «ببعض

مخلوقاته دليل على أنها من عظيم آياته»[١٧٦]، في نظر ابن القيم.

وقد حاول تأكيد هذه القاعدة العامة من خلال تتبعه لنصوص عديدة من القرآن الكريم، ورد فيها القسم بهذه الصيغة. وفيما يتعلق بالسورة التي نحن بصددها أشار ابن القيم إلى ما يلي:

«القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه وكتب به الوحي وقيد به الدين وأثبتت به الشريعة وحفظ به قدره وقامت به مصالح العباد في المعاش المعاد»[١٧٧].

كما يذهب صاحب «الكشاف» إلى المعنى نفسه بقوله:

«وأقسم بالقلم تعظيماً له لما في خلقه وتسويته من الدلالة على الحكمة العظيمة ولما فيه من الفوائد التي لا يحيط بها الوصف»[١٧٨].

هكذا كان الرأي السائد عند القدماء: إن القسم القرآني يحمل – بشكل عام – معنى التعظيم للمقسم به، لذلك فقد كانوا معنيين كثيراً بتحديد وجه التعظيم في كل ما أقسم به في القرآن الكريم.

لكن من المفيد الإشارة هنا إلى وجهة نظر حديثة في الموضوع، تستقيم مع الوجهة الأسلوبية واللغوية التي نحن بصددها في هذا البحث:

ترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ أن القسم بالواو في القرآن الكريم قد خرج عن أصل الوضع اللغوي في القسم للتعظيم، على نحو ما تخرج أساليب الأمر والاستفهام عن الأصل الذي وضعت له، للدلالة على معنى أو معان ثانية لملحظ بلاغي. تقول:

«فالواو في هذا الأسلوب تلفت لفتاً قوياً إلى حسيات مدركة ليست موضع غرابة أو جدل، توطئة إيضاحية لبيان معنويات أ و غيبيات لا تدرك بالحس» [١٧٩] .

إن القسم بالواو – في نظرها – أسلوب بلاغي لبيان معان بالمدركات الحسية، وما يلمح فيه من قوة التعظيم، إنما يقصد به قوة اللفت. واختيار المقسم به تراعى

فيه الصفة التي تناسب الموقف. وقد تتبعت هذه الظاهرة في تفسيرها لمجموعة من قصار السور، التي فيها الاستهلال بهذا النوع من القسم: سورة الضحى[١٨٠]، سورة العاديات[١٨١]، سورة النازعات[١٨٢] سورة القلم[١٨٣]، سورة العصر[١٨٤]، سورة الليل[١٨٥]، وسورة الفجر[١٨٦].

وفيما يتعلق بسورة القلم تحديداً، ترى الباحثة أن «الواو هنا قد خرجت عن معناها الأول في القسم للتعظيم، لملحظ بياني، هو قوة اللفت إلى ما عهدوا (أي المشركين) من أمر القلم والكتابة واعتمادها على سر الحرف، توطئة إيضاحية للرد على المشركين في كلمات الله تعالى»[١٨٧].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾:

نلمح هنا قوة تأكيد نفي الجنون؛ وذلك قصد إثبات ما قصد المشركون نفيه، وهو أن يكون رسولاً من الله؛ لأنهم لما نفوا عنه صفة الرسالة، وضعوا موضعها صفة الجنون، فإذا نفي ما زعموه فقد ثبت ما ادعاه.

لذلك أجيب قولهم وتأكيدهم ذلك بحرف (إن) ولام الابتداء؛ إذ قالوا: إنه «مجنون» بمؤكدات أقوى مما في كلامهم؛ إذ أقسم عليه وجيء بعد النفي بالباء لتأكيده، كما جيء بالجملة الاسمية على ثبات الخبر؛ أي تحققه فهذه ثلاثة مؤكدات[١٨٨].

ولا شك في أن الرسول ﷺ كان في حاجة إلى هذا النوع من التثبيت، وذلك بالنظر إلى ما كان يلاقيه من تكذيب المشركين. وقد قال ورقة بن نوفل – كما نقلت ذلك كتب السيرة النبوية – بعد أن علم بخبر الوحي الأول: «لتكذبنه، ولتؤذينه، ولتقاتلنه ولتخرجنه ولم يأت رجل بمثل ماجئت به إلا عودي»[١٨٩].

أنت اسم (ما) و(بمجنون) خبرها. وأغلب المفسرين يقولون إن الباء زائدة. وهذا مالا يؤنس إليه في البيان القرآني؛ إذ مقتضى ذلك إمكان الاستغناء عنها. وباستقراء ما في القرآن الكريم من الباء التي تأتي في خبر المنفي بما وليس، يتأكد أن هذه الباء تصرف الأسلوب إلى الجحود والإنكار[١٩٠]. نفهم ذلك استئناساً بالآيات التي تأتي

على هذه الصيغة، منها على سبيل المثال:

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (١٩١).

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١٩٢)

﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ (١٩٣).

أما الباء التي تأتي في خبر المنفي بـ «ليس» فيمكن التمثيل لها بقوله تعالى:

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١٩٤).

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (١٩٥).

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾(١٩٦).

ويذهب «ابن الحاجب» في أماليه إلى أن «بنعمة ربك» متعلقة بالنفي لا بقوله «بمجنون»؛ إذ لو علق به لكان المراد نفي جُنُون من نعمة الله. والآخر أنه لم يُرَدْ نفي جُنون مخصوص وإنما أريد نفيه عموماً، فتحقق أن المعنى انتفى عنك الجنون مطلقاً بنعمة الله. وعلى هذا يُحْكَمُ في التعلق فإن صح تعلقه بالفعل وإلا عُلِّقَ بالحرف على ما تقرر»(١٩٧). ويرى ابن هشام في مغني اللبيب الرأي نفسه(١٩٨). وكذلك جمال الدين القاسمي في «محاسن التأويل» (١٩٩). لكن هناك اعتراضاً على هذا الرأي: فالنحاة يشيرون إلى أن الجار والمجرور يتعلق فقط «بالفعل أوما يشبهه، أوما يشير إلى معناه، فإن لم يكن شيء من هذه الأربعة موجوداً قدر»(٢٠٠).

اعتبر الزمخشري في الكشاف «بنعمة ربك» حالاً من الضمير الذي يوجد في مجنون المنفي. وتقديره: انتفى وصف المجنون بنعمة ربك عليك. وقد جاءت الباء للسببية. وتقديره: بسبب إنعام الله عليك حين برأك من النقائص(٢٠١). ويرى أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط رأياً قريباً من هذا الرأي (٢٠٢). في حين يرى آخرون أن «بنعمة ربك» جملة اعتراضية، وأن الباء متعلقة بمحذوف يدل عليه السياق. وتقديره: أن ذلك بنعمة ربك. هذا على نحو ما قيل في تعلق الباء في قوله تعالى «باسم الله» (٢٠٣). والذي يرجح هذا

الرأي – في نظري – هو ما أشار إليه القدماء من كون الجملة الاعتراضية تأتي للتأكيد: فالبلغاء يقولون عنها إنها يقصد بها«ضرب من التأكيد»[٢٠٤]. والنحويون يعرفونها بأنها جملة صغرى تتخلل جملة كبرى.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾:

يلاحظ أيضاً تنكير «أجر». وقد نكر للتكثير؛ لأن التعريف من شأنه أن يقيد هذا الأجر. ولما كان أجره عند ربه أجراً كبيراً مطلقاً آثر تنكيره حتى يعطي لفظ «الأجر» ذلك الامتداد الذي لا يحده قيد. نفهم ذلك استئناساً بقوله تعالى في آية مشابهة، حكاية عن سحرة فرعون:

﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (الأعراف:١١٣).

بل إن المستقرئ لهذا اللفظ في القرآن الكريم، يجده يأتي دائماً بهذه الصيغة؛ أي منكراً. ولم يأت مرة واحدة معرفاً بـ «أل». ومن ثم يمكن – مرة أخرى – الاطمئنان إلى ما أشرت إليه.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾:

أيضاً الخبر في الآية إنكاري لوجود المؤكدين إن واللام. وقد وصلت هذه الآية بالآية السابقة؛ وذلك لكونهما معاً جملتين خبريتين؛ لأنه من مواضع الوصل بين الجمل: «أن تتفق الجملتان خبراً»[٢٠٤].

الحرف: «على» يلقي ظلالاً خاصة على الآية؛ وفيه لفت بديع وتصوير رائع لسمو أخلاق الرسول – عليه الصلاة والسلام – وذلك بما يوحي به من استعلاء.

يعزز هذا ما ورد في كتب التفسير عن عائشة حين سئلت عن معنى الآية، فقالت: «كان خلقه القرآن»[٢٠٦].

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾:

الآية تفريع عن الكلام السابق بالفاء. والملاحظ هنا أن ذكر«السين» يصرف زمن

الفعل إلى المستقبل. وفي تكرار الفعل «أبصر» تأكيد أفاد التهديد، لذلك كان الوصل بين الجملتين الفعليتين بالواو.

قبل الاسترسال في تتبع التراكيب النحوية في السورة، أنبه على أن هذه الآيات الأربع يجمع بينها رابط معنوي قوي وهو التأكيد: القسم في الآية الأولى، الجملة الاعتراضية في الثانية، حروف التأكيد في الثالثة والرابعة، والتكرار في الخامسة. ولا شك في أن الدارس لسيرة الرسول ﷺ، وما كان يلاقيه من تسفيه وعنت وتكذيب من قبل المشركين، يدرك جيداً الجو الذي كان يخيم على الرسول والجماعة المؤمنة معه: وهو جو الاغتراب والتقنيط، ومن ثم كان لابد من هذا التأكيد لبعث الرجاء وبث الروح في النفوس.

في تعبيره «بالمفتون» مجاز مرسل لأن الأصل: «بأيكم الفتنة»؛ وقد أطلق اسم الفاعل على المصدر، وتسمى هذه العلاقة بالتعلق الاشتقاقي.

في هذه السورة مشكلة نحوية خاض فيها النحاة والمفسرون. ولعل فيما أورده الفخر الرازي في «التفسير الكبير» تلخيصاً لهذه الآراء:

١- فريق يرى أن الباء زائدة : الأخفش، أبوعبيدة، وابن قتيبة.

٢- فريق يطعن في هذا الوجه، ويرى أن المفتون هنا بمعنى المجنون .

٣- آخرون يرون أن الباء بمعنى «في». فيكون المعنى: فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون: أفي فرقة الإسلام أم في فرقة الكفار .

٤- المفتون هنا هو الشيطان: بمعنى سيعلمون بأيهم شيطان[٢٠٧].

يبدو أن رأي الفريق الأول، الذي يرى أن الباء زائدة، هو الرأي الأقرب للصواب، إذ هو الذي يستقيم مع حس اللغة العربية «وإذا دعاك اللفظ إلا معنى من قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد». على حد تعبير ابن القيم الجوزية [٢٠٨].

نستأنس في فهم ذلك ببعض الآيات التي وردت على هذه الصيغة، مثل قوله تعالى في سورة النساء:

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[٢٠٩].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ :

أول ما يلاحظ في هذه الآيات هو ترداد حروف التأكيد: فبالإضافة إلى الأداة «إن» التي تصدرت الآية، هناك ضمير الفصل (هو) الذي ذكر مرتين، وقد فصل بين ركني الجملة (اسم إن وخبرها): لذلك فإن الخبر إنكاري.

ما يلاحظ أيضاً هو ذلك التقابل بين فعل (ضل) في الزمن الماضي، و(المهتدين) الذي هو اسم فاعل؛ وهذا يعني أمرين :

أولاً: استعمل الماضي في الفعل «ضل» ليفيد الزمن الماضي: لأن الضلال ثابت في هؤلاء منذ القدم. في حين نجد في الجملة الثانية التعبير بصيغة اسم الفاعل الذي يدل على معنى مجرد حادث.

ثانياً: إن التعبير بـ «ضل» قرن باسم الموصول «من»، وقد جيء به لأنه في مدلول الصلة تقرير للغرض المسوق له الكلام. وهذا التعبير أبلغ من قوله: إن ربك هو أعلم بالمضلين وهو أعلم بالمهتدين.

أمر آخر أشار إليه صاحب «التعبير الفني في القرآن»: هناك التعريف باسم الموصول «من»، في قوله: «هو أعلم بمن ضل عن سبيله». وجاء معها الفعل مفرداً، لبيان حقارتهم وهم قليل، وكأنهم فرد واحد: «بمن ضل عن سبيله»[٢١٠].

هناك وصل بين الجملة «هو أعلم بمن ضل عن سبيله»، والجملة «هو أعلم بالمهتدين». وقد شاركت الثانية الأولى في حكمها الإعرابي. والتناسب بين الجملتين واضح. يقول عبد القاهر الجرجاني في مثل هذه الظاهرة :

«إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا: هو يقول ويفعل ويضر وينفع ويسيء ويحسن ..ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهورا وكان الأمر حينئذ

صريحاً»؛ ذلك أنك إذا قلت: هو يضر وينفع، كنت قد أفدت بالواو أنك قد أوجبت له الفعلين جميعاً، وجعلته يفعلهما معاً، ولو قلت: يضر ينفع من غير واو لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك «ينفع» رجوعاً عن قولك يضر»[٢١١].

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ :

الفاء للتسبب عن الكلام السابق: «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين». و «لو» في الآية تفيد التمني . لعل في إيثار التعبير بـ «لو» على أدوات التمني والترجي الأخرى، ما يفيد قوة الرغبة في الإدهان عندهم.

وقد أشار إلى الخاصية الدلالية لهذه الأداة صاحب كتاب «دلالة التراكيب». وذلك بالمقارنة بينها وبين أدوات التمني الأخرى، فقال عنها: «كأنها تبرز شعور اللهفة اليائس (كذا)» [٢١٢].

في الآية مشكلة نحوية خاض فيها النحاة والمفسرون، وذلك لاحتفاظ الفعل «يدهنون» بالنون. والأصل هو حذفه لأنه جواب التمني. ولعل في كلام صاحب الكشاف ما يلخص جانباً من الآراء المختلفة في الموضوع. يقول في ذلك ما معناه:

عدل به إلى طريق آخر هو على تقدير خبر مبتدأ محذوف: فهم يدهنون. أو على المصدرية المؤولة، بمعنى ودوا إدهانك، فهم الآن يدهنون لطمعهم في إدهانك[٢١٣].

وهناك قراءة أخرى أشارت إليها بعض كتب التفسير، وهي (ودوا لو تدهن فيدهنوا) أما التخريج الذي نجده لهذه القراءة عند النحاة فهو على النحو التالي :

« إما أن يكون: لما كان معنى (ودوا لو تدهن) : ودوا أن تدهن بها بحمل العطف على المعنى، كما أن قوله: هو أحسن الفتيان وأجمله محمول على المعنى؛ لأن « أحسن الفتيان» و «أحسن فتى» واحد في المعنى. وإما أن تكون «لو» وإن كانت زائدة في هذا الموضوع، لما كانت على لفظ «غير» الزائدة أجريت مجراها للشبه اللفظي، كما جرى «أحمد» مجرى «أضرب» على منع الجر والتنوين»[٢١٤].

يتبين مما سبق أن الذي حصل هنا أن النحاة القدماء قد عرضوا الآية القرآنية

على قواعدهم النحوية، ثم راحوا يلتمسون الحيل لتسوية الصنعة الإعرابية. وما يجوز أن يعرض البيان الأعلى على قواعد النحاة وأنه الأصل والحجة». لذلك تبقى الآية – إذن – على وجهها: الفاء حرف عطف، وتثبيت النون في « فيدهنون» رفعاً بالعطف على تدهن»[٢١٥].

ويظهر في الآية «ودوا لو تدهن فيدهنون» أن ضمير المخاطب قدم على ضمير الغائب. وذلك لأن الإدهان والتساهل – في نظرهم – يجب أن يكون من الرسول ﷺ أولاً، ويبادروه هم أيضاً بعد ذلك [٢١٦].

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ :

وصلت الآيات بالواو مع الآية السابقة «فلا تطع المكذبين...»؛ ذلك لأن من مواضع الفصل التي أشار إليها علماء المعاني: «اتفاق الجملتين في الإنشائية لفظاً ومعنى»[٢١٧]. والجملتان معاً إنشائيتان أفادتا الأمر.

كما يلاحظ كثرة صيغ المبالغة على وزن «فعال» و «فعيل» خاصة: حلاف، مهين، مشاء، مناع... إلخ. المتفحص لهذه الصيغ يجدها وردت كلها منكرة. ورب سائل يتساءل لماذا وردت كذلك؟

تشير كتب علم المعاني إلى أن الكلمة تنكر عادة للتعظيم أو للتحقير. وإذا كان الوجه الأول بعيد الاحتمال؛ لأن السياق لا يحتمله، يبقى الوجه الثاني هو المقصود: فالكلمات نكرت – إذن – لتحقير الموصوف.

الآيات ليست موصولة فيما بينها، وهذا أمر طبيعي؛ لأنها متصلة فيما بينها من ذات نفسها، أو بتعبير علماء المعاني: فصلت التراكيب بعضها عن بعض «لكمال الاتصال»[٢١٨] بينها.

وقد جرى الاستعمال القرآني على أن لا يعطف بعض الأوصاف على بعض، إلا إذا كان بينها تضاد أو مغايرة «ومقتضى المغايرة ألا تدخل (يعني الواو التي هي للفصل) بين الشيء ونفسه»[٢١٩].

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ :

الآية الأولى فيها قراءات أخرى: «أأنْ كانَ ذَا مالٍ وبَنينَ» بهمزتين. أو «آن كان ذا مال وبنين» بهمز ومد[٢٢٠]. قال الفراء: من قال: «أأن كان ذا مال» بهمزتين، فإنه وبخه: «ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه»؛ أي لا تطعه ليساره وعدده. قال: «وإن شئت قلت: ألأن كان ذا مال وبنين إذا تليت عليه آياتنا قال أساطير الأولين»؟ ؛ أي جعل مجازاة النعمة التي خولها الله من المال والبنين الكفر بآياتنا. كما تقول: «أأن أعطيتك مالي شغبت علي»[٢٢١].

وهذه الآية تتعلق إما بما قبلها، وإما بما بعدها. الوجه الأول على تقدير: ولا تطع كل حلاف مهين... أن كان ذا مال وبنين: أي لا تطعه مع هذه المثالب ليسره وكثرة أولاده. والثاني على تقدير لأجل أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. ومعناه لأجل أن كان ذا مال وبنين جعل مجازاته على هذه النعم التي خولها الله له الكفر بآياته [٢٢٢].

إذا أخذنا الآيات على وجه الأول فإن هذه الآية سترتبط بما قبلها، لتشكل بذلك مع الآيات السابقة لها جملة واحدة كبرى تذوب فيها مجموعة أخرى من الجمل الصغرى. لكن، مع ذلك، يبقى التركيب البياني متميزاً ؛ وذلك لما فيه من تلوين في الأساليب بين الإنشائية في الآيات الأولى والخبرية في الآيات الأواخر: وقد أشار البيانيون إلى «أن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد، وطال، حسن تغيير الطريقة» [٢٢٣].

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ :

في قوله سنسمه على الخرطوم استئناف بياني: فبعد أن ذكر بمجموعة من الصفات المذمومة عن ذلك إنسان (حلاف مهين ...)، كان من العرف والعادة في نفس المخلوقين أن يقولوا: فما جزاء هذا الإنسان [٢٢٤].

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ :

ضمير الغائب في فعل «بلوناهم» يعود على المكذبين. وقد أكدت الجملة بحرف التوكيد «إن». وقدم ضمير المتكلم (نا) وذلك لتقوية الحكم: فضرب الخبر إنكاري إذن.

كما حذف مفعول «يستثنون»؛ وذلك حتى يكون في ذهن المتلقي (القارئ) مطلقاً، ينصرف إلى كل شيء يكون في ذهنه. وفي هذا التعبير ما فيه من التعميم الذي يعطينا انطباعاً خاصاً على ما كان عليه أولئك الناس من شره وبطر للنعمة.

لكن هناك من يرى أن المقصود بالاستثناء هو أنهم لم يقولوا: «إن شاء الله». ووجه التسمية في ذلك أن أصل صيغته يوجد فيها حرف استثناء وهو (إلا)، فإذا اقتصر على إن شاء الله دون الاستثناء، أطلق عليها ،مع ذلك، استثناء لأنه على تقدير: إلا أن يشاء الله[٢٢٥].

قبل متابعة الحديث أشير إلى ظاهرة أسلوبية طغت على الأحداث في القصة؛ يتعلق الأمر بحرف العطف الفاء: فجميع الأحداث في القصة تم الوصل بينها بحرف الفاء دون غيره من حروف العطف[٢٢٦]: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ... فَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ... فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ... فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ... فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾ :

ما السر في إيثار هذا الحرف على غيره من حروف العطف الأخرى؟

إن إيقاع السورة نلمح فيه نزوعاً إلى الإيجاز الشديد وطي الكلام طياً، وذلك ما يتلاءم مع الطبيعة الدلالية لحرف الفاء. فهي «تحرك الزمن في الفعل الماضي وتمده، وتمطله، حتى تبلغ به أول الزمن في الفعل الذي يليه»[٢٢٧].

بل إنه من المثير أنه حتى في المرة التي شذ فيها السياق عن هذه القاعدة – وهي ترداد الفاء في الربط بين الأحداث– نستطيع بقليل من التأمل أن ندرك ما ينطوي عليه

ذلك. الآية: « «وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ». فهي المرة الوحيدة التي تم فيها الربط بين حدث وآخر بحرف غير الفاء وهو الواو. والسبب – كما يبدو لي – هو أن هذه الآية ما هي إلا تفصيل وتفسير لآية سبقتها، وهو قوله تعالى: «فانطلقوا وهم يتخافتون». إذن الواو لم تربط بين حدث وآخر، بل بين حدث وتفصيل لهذا الحدث. «لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات وفي أساليب ترتيبه معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كل ما استخدمه في حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات، ومعجزات....فإن ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات»[٢٢٨].

أخيراً لا أملك إلا أن أتعجب مع العلامة محمود محمد شاكر بشأن الفاءات التي ترد في القرآن الكريم: «من تأمل الفاءات في كتاب الله رأى عجباً» [٢٢٩]. ونقول أيضاً مع الفخر الرازي: إن «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[٢٣٠].

﴿فَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ :

التعبير بـ «على» في قوله «على حرثكم» فيه نوع من الاستعلاء. كأنه قيل: «اغدوا على حرثكم أي مستقرين عليه» [٢٣١].

حذف مفعول (صارمين)، وتقديره: صارمين الجنة؛ وذلك لأن المفعول هنا معلوم، سبق ذكره. فمن المواطن التي يحذف فيها المفعول: «أن يكون معك مفعول معلوم مقصود قصده قد علم أنه ليس للفعل الذي ذكرت مفعول سواه بدليل الحال أو ما سبق من الكلام» [٢٣٢]. هذا فضلاً عما في ذلك من مراعاة الفاصلة القرآنية. ظاهرة الحذف كثير في السورة، وهي تحقق في النص جمالية خاصة. لذلك يقول عبد القاهر الجرجاني عن الحذف:

«هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد في الإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تبن» [٢٣٣].

الآية ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ تعكس بعمق روح الأثرة ونوازع الشر التي استحكمت في قلوب أصحاب الجنة، وذلك يتجلى في تركيب الآية: فبالإضافة إلى استعمال «أن» التفسيرية ولا النافية، هناك نون التوكيد الثقيلة في الفعل «يدخلنها» وكذلك تأخير الفاعل «مسكين».

﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ :

في الآية الأخيرة ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ نكتة من نكت الإعجاز أشار إليها صاحب «تفسير التحرير والتنوير». ولكونها ترتبط بالتركيب النحوي الذي نحن بصدده يلزم الوقوف عند مضمونها:

«الحرد» يطلق على «المنع» وعلى «القصد القوي»؛ أي السرعة وعلى «الغضب». والجار والمجرور «على حرد» يتعلق بما يناسب كل معنى من معانيه:

فإذا علق بقادرين «فتقديم الجار والمجرور يفيد تخصصاً؛ أي على المنع قادرين. هذا إذا حمل الحرد على الاحتمال الأول الذي هو المنع.

أما إذا كان على الاحتمال الثاني، وهو القصد القوي أو السرعة فإن «على حرد» يتعلق بـ «غدوا» ليبين نوع الغدو. فيكون المعنى: غدوا بسرعة ونشاط، ويكون هنا «قادرين» حالاً من ضمير «غدوا» حالاً مقدرة؛ أي «مقدرين قادرين على تحقيق ما أرادوا».

الاحتمال الثالث هو أن يكون «على حرد» بمعنى الحرد والغضب. يتعلق الجار والمجرور هنا بقادرين. وتقديمه للحصر، أي غدوا لا قدرة لهم إلا على الحنق والغضب على المساكين؛ لأن هؤلاء «يقتحمون عليهم جنتهم كل يوم فتحايلوا عليهم بالتبكير إلى جذاذها، أي لم يقدروا إلا على الغضب ولم يقدروا على ما أرادوا من اجتناء ثمرة الجنة»[٢٣٤].

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾:

الآيات تفريع عن الكلام السابق بالفاء. «إنا لضالون»: الكلام مؤكد بـ «إن» و«اللام»، بالإضافة إلى تقديم ضمير المتكلم «نا». ضرب الخبر- إذن - إنكاري.

وعلى الرغم مما في كلامهم هذا من التأكيد الذي قد يفيد اليقين، فإنهم ما لبثوا أن أضربوا عنه بحرف إضراب «بل».

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ :

إننا محرومون، هذا هو اليقين؛ مع ذلك جاء الخبر ابتدائياً (خالياً من أدوات التأكيد)؛ لأن الحقيقة بادية للعيان فلا حاجة إلى التأكيد لتقريرها.

وكان مقتضى الظاهر في قوله: «بل نحن محرومون» أن يأتي الضمير «نحن» مستتراً؛ لأنه سبق ذكره، لكنه آثر تكراره لإفادة معنى الاختصاص: وهذا ما يسمى في اصطلاح علماء المعاني «وضع المظهر موضع المضمر».

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ :

في قوله « ألم أقل لكم لولا تسبحون» ورد الاستفهام بالهمزة، وقد جاء بعدها الفعل المضارع مجزوماً، صرف إلى الزمن الماضي بالنفي، وقد أفاد هذا الأسلوب التوبيخ والإنكار.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ :

جملة «إنا كنا ظالمين» إقرار بالذنب، وقد جاءت مؤكدة للمزيد من الإقرار. حرف «إن» تعليل للتسبيح الذي قبله. وقد حذف مفعول «ظالمين» ليعم ظلمهم أنفسهم بما جروه على أنفسهم من سلب النعمة، وظلم المساكين بمنعهم من حقهم في المال [٢٣٥].

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ :

أظهرت كلمة «ربنا» في قوله «إنا إلى ربنا راغبون»، وكان «مقتضى الحال» إضمارها؛ لأنه سبق ذكرها في قوله «عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها». ولقد جاءت على هذا الشكل؛ لأن الموقف موقف استرحام واستعطاف لله سبحانه، وفي تكرار الكلمة في هذا المقام ما يحقق ذلك.

كما قدم المحمول «إلى ربنا» على الحامل «راغبون»، وأفاد ذلك معنى التخصيص: فكأن أصحاب الجنة في كلامهم يقصرون رغبتهم إلى الله وحده. وهذا التعبير- من حيث درجة التخصيص- أبلغ من قوله «إنا راغبون إلى ربنا».

في قولهم: «عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها» عبر بـ «عسى» الدالة على الترجي. والترجي يكون «إذا كان المطلب الممكن متوقعاً»[٢٣٦]. فهؤلاء إذن يشعرون أن مطلبهم ممكن التحقق. لكن الجدير بالتنبيه هنا أن إمكان التحقق لا يكون إمكاناً بالنسبة إلى الواقع، إنما يكون من حيث إحساس النفس به: «فقد يغلب على النفس الإحساس باليأس فتستبعد القريب وقد يغلب الشعور بالأمر فيقرب البعيد»[٢٣٧].

في ضوء ما أشرنا إليه نفهم دلالة هذا التقابل في السياق بين التعبير بـ «عسى» الدالة على الترجي في المغفرة، وإمكانية تحققها وبين الآية التي جاءت بعد ذلك: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾. فالآية صريحة في أن الله عذبهم في الدنيا وسيعذبهم أكثر في الآخرة. على الرغم من أن بعض التفاسير تذهب إلى أن الله غفر لهم : «فأبدلهم بها جنة وكل عنقود منها كالرجل الأسود القائم»[٢٣٨].

في الآية الأخيرة ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ تهويل وتفخيم تحقق بعدة وسائل:

أولها جيء بالمسند إليه اسم إشارة للبعيد «كذلك»، وقد تم تقديمه، ثم أظهر لفظ «العذاب» في الجملة الثانية و «لعذاب الآخرة لو كانوا يعلمون»، وكان مقتضى الحال إضماره؛ لأنه سبق ذكره.

الفعل المتعدي «يعلمون» أنزل منزلة اللازم، ولذلك فهو لا يتطلب مفعولاً. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى مثل هذه الظاهرة :

فالأغراض من ذكر الأفعال المتعدية تختلف «فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين» [٢٣٩].

كما تبدو الآية قد فصلت عما قبلها، مع وجود تناسب وأيضاً جامع بينهما. المانع

من الوصل هو أنه لم يقصد تشريك جملة «كذلك العذاب» مع الجملة التي قبلها في الحكم الإعرابي. ولو اشتركت لكانت هي الأخرى مقول قول أصحاب الجنة. لكنها ليست كذلك، بل هي تعقيب من الله – سبحانه وتعالى – على ما حدث.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ :

يلاحظ تأخير المسند إليه «جنات النعيم» عن المسند، والغرض من ذلك التشويق. فحين ذكر وعده للمتقين في قوله: «إن للمتقين عند ربهم» تبقى النفس معلقة تنتظر ماهية الموعود به، وفي ذلك ما فيه من قوة اللفت، وهذا الأسلوب يكثر في القرآن الكريم، خاصة في المواقف التي يعرض فيها الله – سبحانه – أحوال اليوم الآخر: من نعيم الجنة وأحوال النار.

كما نلمح نوعاً من التعظيم لهذه الجنة، تحقق بعدة وسائل: صيغة الجمع «جنات» وإضافتها إلى «النعيم»، التي جاءت معرفة بـ «أل»، مع ما في لفظ «النعيم» هذا من تكثير وتفخيم ينفرد به هذا المصطلح في التعبير القرآني.

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ :

هناك قراءة شاذة لـ «أيمان» بالنصب. وقد ذكر بعض النحاة أنه يجوز أن يكون «بالغة» حالاً من الضمير في لكم؛ لأنه خبر عن «أيمان». وقال ابن جني: «وإن شئت جعلته حالاً من الضمير في «علينا»، إذا جعلت «علينا» وصفاً لأيمان، لا متعلقاً بنفس الـ «أيمان» ؛ لأن فيه ضميراً كما يكون فيه ضمير منه إذا كان خبر عنه» [٢٤٠].

الآيات كلها جاءت على طريقة الاستفهام، وهذه خصيصة تطرد في الأسلوب المكي كله[٢٤١]. والسبب في ذلك واضح؛ فالقرآن المكي يتعرض – غالباً – لأصول الدين من توحيد وإيمان بالله والرسول واليوم الآخر. لذلك فهو يخاطب الوجدان خاصة، وكان من المناسب أن يجمع فيه الأساليب الثائرة المؤثرة «وهل هناك في

الأساليب ما هو كالاستفهام احتواء على أنواع الشعور وألوان الانفعال من تعجب وتقبيح وتوبيخ ووعيد؟» [٢٤٢].

ومما لا يخفى هنا أن أساليب الاستفهام أفادت- بالإضافة إلى الاستفهام- بعض الأغراض البلاغية الدقيقة كالإنكار والتعجب والتهكم...

فالاستفهام الأول: «أفنجعل المسلمين كالمجرمين؟» كان بالهمزة، وقع بعدها فعل مضارع وقد أفاد الاستفهام الإنكار والتجهيل. أي لا نجعل هؤلاء كهؤلاء: وفيه إنكار على من ادعى ذلك وتجهيل له.

أما الآيات الأخرى فالاستفهام في الغالب بـ «أم» المنقطعة: «أم لكم كتاب فيه تدرسون؟»

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

وقد أفاد الاستفهام في الآيات نوعاً من التهكم. وهذه الظاهرة يمكن تسجيلها على أغلب الأساليب الاستفهامية القرآنية بـ «أم» المنقطعة. وقد تنبه الدكتور عبد العليم السيد فودة إلى هذا الأمر فقال:

« كثر دخول أم المنقطعة على الجملة الاسمية التي ليس فيها فعل ولا وصف بمعناه، فتقيد نفي النسبة والتهكم» [٢٤٣].

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة بعض الظواهر التركيبية الأخرى، فإنه يمكن تسجيل ما يلي :

الآيات تفريغ عن الكلام السابق بالفاء: «أفنجعل المسلمين كالمجرمين». إذن فهي موصولة بما سبق من الكلام.

لكن الآيات مفصولة فيما بينها[٢٤٤]، فلم يرد أي حرف للوصل يصل بينها. وسبب ذلك بحسب اصطلاح علماء المعاني – هو أنه هناك «كمال الاتصال»[٢٤٥] بينها: فكل آية وقعت مفصلة أو مفسرة أو مؤكدة لما سبقها.

على مستوى التقديم والتأخير: تقدم المعمول وهو «كيف»، على العامل «تحكمون»؛ لكون المعمول محل الإنكار[٢٤٦]، وذلك في الآية الثانية.

أما الآيات التي أشرت إليها سابقاً، التي ورد فيها الاستفهام بـ «أم» المنقطعة، فهي متشابهة في تركيبها النحوي: حيث قدم فيها المسند (لكم، لهم، عندهم) على المسند إليه، والغرض البياني من ذلك هو التخصيص.

عموماً نلمس في الآيات بعض الطول مع تشابه في التركيب. لكن – مع ذلك– يتحقق التناسب الفني بوسائل عديدة، منها ما يلي:

تلوين الأساليب من الإنشاء إلى الخبر في قوله: «إن لكم فيه لما تخيرون». فالجملة الأخيرة خبرية؛ لأنها في موضع مفعول «تدرسون»، على أنها محكي لفظها: أي تدرسون هذه العبارة [٢٤٧].

ويتضح هذا التلوين أيضاً في الانتقال من الاستفهام إلى الأمر في قوله: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾.

ثم هناك الالتفات [٢٤٨] من حال الخطاب إلى حال الغيبة في الآيتين الأخيرتين.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

في نصب «يوم» خلاف بين النحاة والمفسرين. ولقد أوجز الإمام الفخر الرازي ذلك في النقط التالية:

أولها، أن يكون منصوباً بـ ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ ﴾، كأنه – سبحانه وتعالى – قال: «إن كانوا صادقين». في أن لهم شركاء تشفع لهم فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون.

ثانيها، أن « يوم» منصوب بفعل مضمر تقديره « أذكر».

ثالثها، أن يكون التقدير يوم يكشف عن ساق كان كيت وكيت فحذف ذلك للتهويل[٢٤٩].

على المستوى البياني نلمس في الآيات غلبة الأفعال المبنية للمجهول (يكشف، يدعون) وهي ظاهرة أسلوبية تطرد كثيراً في الآيات التي تتحدث عن أهوال اليوم الآخر. وقد انتبهت إلى هذه الظاهرة الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، وذلك في تحليلها لسورة «الزلزلة». وهي ترى أنها ظاهرة «قل أن نخطئها في أحداث اليوم الآخر»[٢٥٠].

حاولت الباحثة تدبر هذه الظاهرة في آيات أخرى وهداها ذلك «إلى أن البناء للمجهول تركيز للاهتمام بالحدث، بصرف النظر عن محدثه. وفي الإسناد المجازي أو المطاوعة تقرير لوقوع الأحداث في طواعية تلقائية ؛ إذ الكون كله مهيأ للقيامة على وجه التسخير. والأحداث تقع تلقائياً لا تحتاج إلى أمر أو فعل» [٢٥١].

ما يمكن ملاحظته أيضاً هو حذف مفعول «تستطيعون» وهو السجود. وسبب ذلك أنه معلوم: «والمعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق» [٢٥٢]. على حد تعبير الخطابي.

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ :

«من» اسم موصول وفي مدلول صلته «يكذب» ما يشير إلى نوع الخبر المحكوم به على المسند إليه، وهذا الخبر هو الاستدراج والعذاب. مثل هذا الأسلوب الذي تكون فيه الصلة مفسرة للحكم كثير في الأسلوب القرآني. انظر مثلاً قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ (العنكبوت : ٩).

في قوله – تعالى – «بهذا الحديث» أضيف «الحديث» إلى اسم الإشارة الموضوع للقريب، والغرض من ذكره التهويل.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ :

لقد جاء الاستفهام بـ «أم» المنقطعة، وقد أفاد التهكم. كما جاء لفظ «أجراً» دون

تعريف. ومن ثم يمكن الاطمئنان مرة أخرى إلى ما ذكرته من قبل[٢٥٣].

قدم المعمول «من مغرم» على عامله «مثقلون»، كما قدم في الآية الثانية الخبر «عندهم» على المبتدأ «الغيب». وقد أفاد هذا التقديم في الآيتين معاً التخصيص. يبدو أن الآية «أم عندهم الغيب فهم يكتبون» على تقدير: «أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون»، فحذف لفظ «علم».

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ :

الأصل في «تداركه» تداركته، وحذفت التاء. ورب سائل يتساءل عما وراء ذلك. يبدو أن في إيثاره التعبير بـ «تداركه» ما يشير إلى نوع المباغتة والمفاجأة، على عكس ما نجده في «تداركته» من الاستثقال. ولنا أن نتصور نبي الله «يونس» – عليه السلام – وهو يتقلب في بطن الحوت، ظاناً أن لا ملجأ من الله إلا إليه – وهذا ما نلمحه في التعبير بالجملة الاسمية «وهو مكظوم» الدالة على الثبات والاستقرار– وفجأة جاء المدد الإلهي لينتشله من هذا الضيق الذي هو فيه. في ضوء ذلك نفهم السر في إيثار التعبير بـ «تداركه» عوض تداركته، على أن هناك قراءات أخرى غير ما أشرت إليه . وهي: تتداركه تداركته[٢٥٤]. وقد جيء بـ «نعمة» نكرة وذلك للتعظيم والتفخيم[٢٥٥].

في الآية مشكلة نحوية خاض فيها النحاة والمفسرون: ذلك أن نبذ صاحب الحوت (يونس عليه السلام): قد تحقق بالفعل، نفهم ذلك من صريح النص في قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (الصافات: ١٤٢).

لكن في قوله تعالى: ﴿ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴾ نجد «لولا» حرف امتناع للوجود، يتعين أن يكون جوابها غير واقع؛ معنى ذلك أنه يلزم أن يكون نبذ يونس غير حاصل.

التخريج الذي يراه النحاة لذلك هو أنهم يجعلون «وهو مذموم» حالاً. وهذا

الحال قيد في جواب «لولا». بمعنى: لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء حين نبذ وهو مذموم، ولكنه نبذه نبذاً غير مذموم، فاجتباه ربه. فالنبذ قد وقع لكن على غير صفة الذم[٢٥٦].

لكن صاحب تفسير «التحرير والتنوير» يرى وجهاً آخر: وهو أن جواب «لولا» محذوف دلت عليه الجملة الاسمية «وهو مكظوم». مع ما يستفاد من صيغة الجملة الاسمية من تمكن الكظم. وهذه الحالة إذا استمرت لم يحصل نبذه بالعراء. ويلحق شرط «لولا» بجملة «إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ» أي لبقي مكظوماً (محبوساً) في بطن الحوت أبداً. وهذا مثل قوله في سورة الصافات:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [٢٥٧].

أما الجملة التالية «لنبذ بالعراء وهو مذموم» فهي استئناف بياني، واللام فيه للقسم؛ لأنه أمر خارق للعادة فتأكيده لرفع احتمال أن يكون مجازاً [٢٥٨].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

«يزلقونك» تقرأ بضم الياء «يُزلقونك » وبفتحها «يَزلقونك» [٢٥٩].

في الآية الأولى، التعبير عن الزمن الماضي بصيغة المضارع: (يكاد، يزلقونك، يقولون)، وذلك لاستحضار الصورة وجعلها جلية في ذهن القارئ، كأنها تدور في الوقت الحاضر. بالإضافة إلى ذلك فإن المضارع يوحي بالاستمرار وهذا الزمن يناسب حقيقة نظراتهم التي حدثت في الماضي وستحدث أيضاً في المستقبل. هذا على عكس الزمن الماضي الذي يوحي بالثبات والاستقرار.

«إن» في الآية مهملة. ولقد استدل ابن هشام بهذه الآية على وجوب إهمالها إذا وقع بعدها فعل ماض ناسخ [٢٦٠].

وكما رأينا في بداية السورة أنها تنزع منزع التأكيد وذلك بالأساليب المختلفة،

نلاحظ الظاهرة تتكرر في خاتمتها مع ترداد أدوات التأكيد: أن، اللام مرتين،إلا.... إلخ.

إن التركيب النحوي للسورة تركيب زاخر بالإشارات اللطيفة والمعاني الدقيقة، وهي معان كامنة في التعابير كاللآلئ في الأصداف. وذلك لخفائها ودقتها وروعتها في الوقت نفسه. وهذه هي – ولا شك – خصائص التعبير المعجز: لأن الفضل والمزية تكون في الكلام «إذا احتمل في إظهار الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخر، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ورأيت الذي جبأ عليه حسناً وقبولاً يعدمها إذا أنت تركته إلى الثاني» [٢٦١]. على حد تعبير عبد القاهر الجرجاني.

الفصل الثالث
الإيقـــاع

مقدمة:

الأداء الصوتي القرآني نمط فريد من نوعه. فهو قد «جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً. فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة. وأخذ في الوقت نفسه من الشعر الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي»[٢٦٢].

ويذهب بعض الباحثين إلى أنه من معاني الآية ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هذه الخصائص الصوتية المميزة للنص القرآني» [٢٦٣].

ولا شك في أن المتعمق الرائز للحروف والأصوات في السورة التي تعنينا في هذا المجال – وهي سورة القلم – يجد عجباً. ذلك ما سيتضح لنا من خلال تناول للمكون الصوتي بالدرس والتحليل. يقول مصطفى صادق الرافعي:

«وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أوغيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، مما تراعي فيه أحكام القراءة وطرق الأداء، فإنك لابد ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن، بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكرت الكلام وغيرته، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجردته من زينة الأسلوب، وأطفأت رواءه؛ ونضبت ماءه» [٢٦٤]

سنعمد في البداية إلى دراسة الظواهر الصوتية التي تتكرر في السورة بأكملها، ضمن ما نسميه هنا ظواهر عامة، لنخلص – بعد ذلك – إلى تسجيل بعض الملاحظات السياقية التي تختلف باختلاف النصوص المكونة للسورة. فقد تبين لنا من الاستقراء أن ثمة ظواهر عامة تتكرر في السورة بأكملها. وتجنباً لما قد ينجم عن ذلك من تكرار، آثرت أن أعزلها عن الظواهر السياقية التي تختلف باختلاف نصوص السورة.

وقد هداني ذلك إلى تقسيم الفصل إلى قسمين: القسم الأول: ظواهر عامة، درست فيه الفاصلة والنظام الصوتي ثم التوزيع الصوتي الذي تتوزع عليه الأصوات في السورة. أما القسم الثاني من هذا الفصل فقد تتبعت فيه السورة لأحصي بعض الظواهر الصوتية المختلفة من تجانس صوتي سواء على مستوى الكلمة، الحرف، الوزن أم النبر. كذلك أشرت إلى ما في السورة من تراكم صوتي لبعض الحروف، مع ما قد تحمله هذه الحروف من دلالة ذاتية. كما كنت – أحياناً – أتجاوز المستوى الصامت للسورة إلى المستوى الناطق. وهو ما يعرف في علم الأصوات الحديث بالأسلوبية الصوتية. وقد ذكر صاحب كتاب «إعجاز القرآن» في هذا المجال:

«وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا ينفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعض مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق؛ والتشفي والتكرير» [٢٦٥] .

القسم الأول من الفصل الأول: ظواهر عامة

أ- الفاصلـــة القرآنية:

نعني بالفاصلة تلك النهايات التي تذيل الآيات في القرآن الكريم: «وتسمى فواصل؛ لأنه ينفصل عندها الكلام، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها» [٢٦٦]. وقد أخذت التسمية من قوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة فصلت:١). وموقعها في الآية يشبه – إلى حد ما – موقع القافية في البيت الشعري. وكما أن القافية في البيت الشعري عنصر متميز، فكذلك الفاصلة في الآية، ولكنها مثلها مثل القافية تبقى جزءاً غير منفصل عن الآية أصيلاً فيها [٢٦٧]. لكن – مع ذلك – لا يجوز تسمية الفواصل قوافي إجماعاً؛ لأن الله تعالى لما سلب عن القرآن اسم الشعر، وجب سلب القافية عنه أيضاً[٢٦٨]. وقال ابن تيمية: «وشبهة الشعر أن القرآن موزون، والشعر موزون، ولكن القرآن ليس بشعر»[٢٦٩]. وقد ميز الداني بين «الفاصلة » و «رأس الآية».

وحدد القافية في كلمة آخر الجملة. يقول:

«أما الفاصلة فهي الكلام المنفصل مما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وغير رأس آية، وكذلك الفواصل يكن رؤوس آي وغيرها، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين» [٢٧٠].

ولو دققنا النظر في فاصلة الآيات، لوجدناها تحمل شحنتين في الوقت ذاته: شحنة من المعنى المتمم للآية، وشحنة من الوقع الموسيقي.

بالنسبة إلى الأمر الأول، نجد – في الغالب – علاقة بين المعنى الذي تحمله الفاصلة، والسياق الذي وردت فيه. وقد تنبه القدماء إلى هذه الظاهرة وأفردوا لها اصطلاحات خاصة، مثل التصدير والتوشيح[٢٧١]. لكن هذه الأمور لا تهمنا في دراسة الإطار الصوتي للسورة، ويبقى الجانب الصوتي للفاصلة هو الذي يعنينا في هذا المجال: إن الفاصلة في السورة انتهت على الشكل التالي: (الواو والنون: سبع مرات. الياء والنون: خمس مرات. الياء والميم: أربع مرات. الواو والميم: مرة واحدة). بذلك تكون الفاصلة في السورة من فصيلة ما يسميه الرماني بالمتقاربة[٢٧٢].

لكن يبقى حرف النون هو الحرف الغالب على الفاصلة في السورة. وذلك يستلزم منا أن نقف لدى بعض الخصائص الصوتية لهذا الحرف:

– من حيث المخرج: النون حرف ذلقي؛ يخرج من بين طرف اللسان وطرف الثنايا، كما يرى ذلك سيبويه[٢٧٣].

– من حيث الطريقة التي يتم بها النطق: ينتمي هذا الصوت إلى فئة الأصوات المتوسطة [٢٧٤]: فلا هو من الأصوات الشديدة (الانفجارية)، ولا هو من الأصوات الرخوة (الاحتكاكية)، فالهواء يمر بالأنف بلا احتكاك ولا انحباس.

– من حيث طبيعة النطق: يصاحب نطق هذا الحرف، النون، اهتزاز الأوتار الصوتية: لذلك فهو من طائفة الحروف المجهورة[٢٧٥].

ولاشك في أن هذا الاهتزاز الخفيف، وتردده الرتيب الموزون، يكسب السورة

إيقاعاً خاصاً. هذا فضلاً عن الخصائص الأخرى – كما سنرى – التي تتيحها القراءات القرآنية، ولا سيما أن حرف النون، من الحروف التي يرتكز عليها الكثير من أحكام علم التجويد.

أما الحرف الثاني، الذي يهمنا في دراسة الفاصلة، فهو حرف الميم. لقد ورد هذا الحرف خمس مرات فاصلة للسورة. ويمكن ملاحظة وجود الصفات نفسها التي رأيناها مع حرف النون: فهو من الأصوات المتوسطة، الأنفية، والمجهورة.

ولعل الفرق الوحيد بين الحرفين يكمن في المخرج: فالنون – كما رأينا – ذلقي المخرج، في حين أن الميم شفوي[٢٧٦].

على أن هناك ملاحظة لا يمكن إغفالها: فالحرفان معاً وردا في الفاصلة ساكنين من حيث النطق؛ ذلك أن النون والميم الساكنتين يسمع في نطقها صوت واحد، كما يرى الدكتور محيي الدين رمضان [٢٧٧]. وهي ملاحظة تهمنا كثيراً في هذا السياق؛ لأنها تبرز لنا جانب الانسجام التام في إيقاع فاصلة السورة: معنى ذلك أن الحرفين، وإن كانا يعتبران مختلفين في الظاهر، فإنهما من حيث الأداء الصوتي – في فاصلة السورة – يشكلان صوتاً واحداً.

كما نلاحظ أيضاً أن الفاصلة جاءت مصحوبة بحرف المد (الواو و الياء)؛ مما يضفي عليها جمالاً خاصاً. ذلك أن «المدود والفواصل، وهي نهايات الدفقات الصوتية للجمل، عند الوقف، نجد لها في القرآن الكريم من الحلاوة والإطراب حظاً يثير الإحساس بأن لها دخلاً كبيراً في الإعجاز، وهي إما مدود مطلقة، يوقف عليها بصوتها، وإما ملحقة بحرف صائت تسبقه، وقد تتكرر في كلمة الفاصلة، فيضاعف التكرير قيمتها بما لا يخفى جماله وأسرار إيقاعه» [٢٧٨]. وقد قال «سيبويه»: أما إذا ترنموا – أي العرب – فإنهم يلحقون الألف والياء والواو، وما ينون وما لا ينون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت»[٢٧٩].

يمكن أن نستفيد هنا مما أورده ابن جني وهو يتحدث عن هذه الظاهرة في القافية الشعرية؛ حيث أشار إلى كثرة حروف المد قبل الروي. يقول:

«إنما جيء بالمد في هذا الموضع لنغمته وللين الصوت به، وذلك أن آخر الكلمة موضع الوقف، ومكان الاستراحة والأوان. فقدموا أمام الحرف الموقوف عليه ما يؤذن بسكونه،(....) ولذلك كثرت حروف المد قبل حرف الروي، كالتأسيس والردف، ليكون ذلك مؤذناً بالوقوف ومؤدياً إلى الراحة والسكون، وكلما جاور حرف المد الروي كان آنس وأشد إنعاماً لمستمعه» (٢٨٠).

كما أشار إلى هذه الظاهرة مصطفى صادق الرافعي في حديثه عن الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وسماها ظاهرة «الاستهواء الصوتي»:

«وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمد، وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوي يستتبع القلقلة أو الصفير أونحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقي»(٢٨١).

قبل أن أنهي حديثي عن الفاصلة، يلزم الوقوف عند ظاهرة أخرى، لا تقل أهمية عن الظواهر التي أشرت إليها في السابق. وهي أن حرفي الفاصلة النون والميم وردا في السورة بنسبة كبيرة. وهذا الترداد لا يعود إلى الفاصلة فقط،، بل هو توزيع متواز يشمل التركيب الصوتي للسورة بأكمله. وهي ظاهرة حسنة دون شك: لأنه بهذا التوزيع تصبح الفاصلة إيقاعاً غير معزول عن الإطار الصوتي العام للسورة، بل تشكل تناغماً وتجاوباً يمتد صداه على امتداد الرحلة الصوتية في السورة.

ولعل ما يزكي رأينا هذا هو إلحاح بعض نقاد الشعر على التزام هذه الظاهرة الفنية في الشعر: فالقافية يجب أن لا تخرج عن عموم حروف البيت وألفاظه. فهذا عبد الله

الطيب يؤكد ذلك بقوله: «خير القوافي ما لازم ألفاظ البيت ولم يجئ كالواغل»[٢٨٢].

بهذا أكون قد أنهيت الحديث عن الفاصلة من حيث علاقتها بالمعنى، ثم من حيث تركيبها الصوتي، وأخيراً من ناحية انسجامها مع المعطيات الصوتية العامة للسورة.

لكن ملامح التركيب الصوتي للسورة، لن تتضح حتى نتعرض لبعض الجوانب الأخرى. وقبل ذلك، لابد من الوقوف عند «النظام الحرفي» الذي يضبط حروف السورة.

ب- النظام الحرفي:

إن العلاقة بين الأصوات في السورة ليست علاقة اعتباطية، بل هي علاقة معنوية مرتبطة بالمعنى العام للسورة، قائمة على تنظيم محكم السبك. يشكل مجموع السورة وحدة متناغمة من الأصوات؛ بحيث إن أي تغيير في الحروف قد يؤدي إلى خلخلة في البنية الصوتية للنص بأكمله.

لكن لضرورة منهجية يفرضها التحليل الألسني، سنعمل على تفكيك هذه الانزلاقية الصوتية، وإيجاد الحدود والفواصل بين صوت وآخر.

إن إحصاء بسيطاً لمجموع الحروف في السورة يقودنا إلى النتائج التالية:

(تكرر النون ١٥٢ مرة)، (الميم ١١٦)، (اللام ٩٠)، (الهمزة ٦٧)، (الباء ٥٦)، (الكاف ٥٠)، (التاء ٤٥)، (الراء ٤٢)، (الياء ٤٢)، (الواو ٣٩)، (العين ٣٧)، (الهاء ٣٤)، (الشين ٢٧)، (الفاء ٢٢)، (الدال ١٩)، (الذال ١٩)، (الحاء ١٧)، (الصاد ١٧)، (القاف ١٦)، (الجيم ١٢)، (الطاء ٨)، (الغين ٨)، (الخاء ٨)، (الثاء ٥)، (الشين ٤)، (الزاي ٤)، (الصاد٣)، (الظاء مرة واحدة).

ويجدر بي أن أشير- أولاً - إلى أن الأمر لا يقتصر فقط على إحصاء الأصوات بعملية ميكانيكية ساذجة، بقدر ما يهمنا الوقوف على بعض الإيحاءات التي يمكن استنتاجها من هذا الإحصاء:

- ما يمكن تسجيله هنا هو أن النظام الصوتي للسورة لا يختلف - بصفة عامة - عن الأنظمة الأخرى في سور القرآن الكريم. ويمكن ملاحظة ذلك بمقارنة نتائج

الإحصاء الذي توصلت إليه بالإحصاءات الأخرى المنجزة في الموضوع[٢٨٣].

سيمكننا هذا الإحصاء من تسجيل بعض الملاحظات حول النظام الصوتي للسورة، كما سيسعفنا في اكتشاف السبب في هذه الرقة والموسيقية والشفافية التي تمتاز بها السورة. ويمكن أن أسوق هذه الملاحظات على النحو التالي:

- الحروف (النون، الميم، اللام، الهمز، الباء، الكاف، التاء) هي الحروف التي لاحظنا حضورها في النص بشكل كبير؛ ذلك أن نسبتها – على التوالي – هي: (١٥٢،١١٦، ٩٠، ٦٧، ٥٦، ٥٠، ٤٩). ولا يخفى ما يمكن أن يحمله هذا الأمر من دلالة. فعلم الأصوات الحديث يقرر أن أسهل الكلمات نطقاً هي التي تتكون من مثل هذه الحروف[٢٨٤].
- الحروف الشديدة (الانفجارية) أشيع في السورة من نظرائها، الرخوة (الاحتكاكية) وهي ظاهرة يمكن ملاحظتها بالمقارنة البسيطة التالية:

(تكرر حرف النون ١٥٢ مرة، بينما تكرر حرف الراء ٤٢ مرة)، (تكرر حرف الباء ٥٦، أما نظيره الفاء فتكرر ٢٢)، (تكرر حرف التاء ٤٥، أما نظيره السين فتكرر ٢٧).....إلخ.

ثم إن الحروف المجهورة تشيع أكثر من نظرائها المهموسة. لملاحظة ذلك يكفي أن نذكر أن الحروف الخمسة الأولى كلها مجهورة: النون، الميم، اللام، الهمزة والباء.

ماذا وراء هذه الظواهر اللسانية؟

إن هذين الأمرين يسمان البنية الموسيقية والصوتية للسورة – بصفة عامة – بسمات خاصة، ويحققان في ألفاظ السورة شروط السلاسة والفصاحة. ذلك لأن علم الأصوات الحديث يؤكد أن الأصوات الانفجارية والأصوات المجهورة أكثر وضوحا في السمع من الأصوات الرخوة والمهموسة. ولاشك في أن الجو العام للسورة ومناسبتها تلائمه الأصوات المجهورة والشديدة أكثر من غيرها.

ثم إن الحروف المجهورة والانفجارية تعطي اللغة رنيناً متميزاً وبارزاً في السمع،

وتجعل الجانب الموسيقي فيها عنصراً مميزاً. على عكس الأصوات المهموسة والاحتكاكية التي يكون معها الصوت خافتاً والأداء الموسيقى ناقصاً.

ملاحظة أخرى وهي أن حروف الإطباق أقل وروداً من نظرائها الحروف غير المطبقة: (الصاد ١٧، الدال ١٩)، (الطاء ٨، التاء ٤٥)، (الظاء١، (الكاف ١٩)، (الصاد ١٧، السين ٢٧)؛ ذلك أن السورة – في إطارها العام – تنقلنا إلى الأجواء الأولى لبداية الوحي، حيث كان الرسول ﷺ قد بدأ في غرس تلك النقلة الغريبة – آنذاك – عن المحيط الجاهلي. لقد كان هذا المحيط يموج – في ذلك الوقت – بمختلف الأضاليل والأباطيل. وقد تعرض الرسول ﷺ في هذا الجو المشحون لصنوف من المكر والإذاية والسخرية[٢٨٥]. من هنا يبدو الخطاب القرآني، وكأنه ينزع إلى إيناس الرسول الكريم، ويدفع عنه مشاعر القنوط.

في المقابل سنجد الخطاب القرآني – في هذه السورة – ينزع إلى استعمال أصوات الإطباق في المواطن التي فيها قوة وشدة، وذلك لقوة هذه الأصوات. ذلك ما يتضح في المقاطع التي يتوجه فيها بالخطاب إلى المشركين الذين قالوا عن رسول الله ﷺ إنه «مجنون». يمكن تأكيد هذه الملاحظة من خلال معاينة الطابع الخاص الذي تضفيه حروف الإطباق على الألفاظ التالية: ستبصر، يبصرون، ضل، فلا تطع، ولا تطع، الخرطوم...

مرة أخرى نلاحظ هذه الدقة في اختيار الحروف؛ لأن حروف الإطباق، هي الأخرى، صعبة في النطق مجهدة للنفس[٢٨٦].

صفوة القول، إن حروف السورة منتقاة بعناية تامة. وهذه هي طريقة القرآن الكريم في صياغة حروفه، أنها طريقة «الاستهواء الصوتي في اللغة» وأثرها في النفس واضح وبعيد. إن أصوات الحروف «إنما تنزل منزلة النبرات الموسيقية المرسلة في جملتها كيف اتفقت، فلا بد لها مع ذلك من نوع من التركيب، وجهة من التأليف، حتى يمازج بعضها بعضاً على نسب معلومة، ترجع إلى درجات الصوت ومخارجه وأبعاده»[٢٨٧].

إلا أن هذه الخصائص الصوتية التي أشرت إليها لن تستكمل نصيبها من الدراسة حتى نتعرض لجانب آخر، يتصل من قريب بالمكون الصوتي للسورة. وهو الجانب الخاص بالكيفية التي تتوزع عليها الأصوات في السورة.

ج- توزيع الأصوات في السورة:

إن ضبط النظام الذي تتوزع عليه الأصوات من الأمور الأساس في تقويم فنية و«أدبية» نص من النصوص؛ ذلك أن الحروف – مهما كانت الدقة في اختيارها – لا قيمة لها، إلا إذا انتظمت في كلمات وأقدار منسجمة، وظهرت أصواتها في أبعاد ومخارج تناسب ما في النفس الإنسانية من مشاعر وأحاسيس.

وقد كان الموضوع محور دراسات قديمة وحديثة مختلفة، جعلت هدفها تقنين الضوابط التي يجب توافرها حتى يتحقق عنصر التلاؤم والانسجام بين الحروف. وتجمع أغلب الآراء في ذلك على عنصر واحد، وهو أن تكون مخارج الحروف في الكلمة متباعدة:

فابن سنان الخفاجي يشترط لتحقق الفصاحة في اللفظ: «.. أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج. وعلة هذا واضحة، وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري مجرى السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان إذ جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصفر وبعد ما بينه وبين الأسود» [٢٨٨].

كما يرى ابن دريد أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل في اللسان منها إذا تباعدت؛ «لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم، ودون حروف الذلاقة، كلفته جرساً واحداً، وحركات مختلفة، ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء، فأمكن، لوجدت الهمزة تتحول هاء في بعض اللغات لقربها منها، ولوجدت الحاء في بعض الألسنة تتحول هاء، وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف»[٢٨٩].

وقد ذهب ابن جني في كتابه «سر صناعة الإعراب» هذا المذهب أيضاً. إن تأليف

الحروف – في نظره – على ثلاثة أضرب: يتمثل أولها في تأليف الحروف المتباعدة، وهو أحسنها. ويتمثل ثانيها في تأليف الحروف المتماثلة، وهو ما يلي الضرب الأول في الحسن. أما ثالثها فيتمثل في تأليف الحروف المتقاربة، فهو مستقبح [٢٩٠].

هل تحقق هذا الشرط في سورة القلم؟

أظن أن السلاسة والفصاحة والموسيقية التي تنضح من السورة كافية للتدليل على تنوع المخارج فيها، دون عناء الذهن وكد الفكر، في تحديد المخارج ومقارنتها في السورة. لكن حتى أنزل هذا الأمر منزل العمل والتطبيق، يمكن أن نأخذ آيتين لتحديد المخارج فيهما والمقارنة بينهما. على أنه من الصعوبة محاولة حصر ومقارنة جميع المخارج في السورة. وأنبه على أن اختياري للنموذجين كان بمحض الصدفة، من موضعين متفرقين (أول السورة وآخرها):

النموذج الأول: ﴿نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ ويتكون هذا النموذج من الحروف التالية: النون، الواو، النون، الواو، اللام، القاف، اللام، الميم، الواو، الميم، الألف، الياء، السين، الطاء، الراء، الواو، النون، الميم، الألف، الهمزة، النون، التاء، الباء، النون، العين، الميم، التاء، الراء، الباء، الكاف، الباء، الميم، الجيم، النون، الواو، النون.

وتتوزع مخارج الحروف في الآية على نحو ما يلي[٢٩١]: (ن: شفوي)، (و: شفهي)، (ن: خيشومي)، (و: شفوي)، (ل: لثوي)، (ق: لهوي)، (ل: ذلقي)، (م: خيشومي)، (و: شفهي)، (م: خيشومي)، (ا: جوفي)، (ي: شجري)، (س: لثوي أسناني)، (ط: نطعي)، (ر: ذلقي)، (و:شفهي)، (ن: خيشومي)، (م: خيشومي)، (ا: جوفي)، (ء: حلقي)، (ن: خيشومي)، (ت: نطعي)، (ب: شفهي)، (ن: خيشومي)، (ع: حلقي)، (م: خيشومي) (ت: نطعي)، (ر: لثوي)، (ب: شفهي)، (ك: حنجري)، (ب: شفهي)، (م: خيشومي)، (ج: شجري)، (ن: خيشومي)، (و: لهوي)، (ن: لثوي).

النموذج الثاني: ﴿يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾:

ويتكون من الحروف التالية: (الواو، الهمزة، النون، الياء، الكاف، الألف، الدال،

اللام، الذال، الياء، النون، الكاف، الفاء، الراء، الواو، اللام، الياء، الزاي، اللام، القاف، الواو، النون، الكاف، الباء، الهمزة، الباء، الصاد، الألف، الراء، الهاء، الميم.

تتوزع المخارج على نحو ما يلي:

(و: شفوي)، (ء: حنجري)، (ن: لثوي)، (ي: شجري)، (ك: لهوي)، (ا: جوفي)، (د: نطعي)، (ل: ذلقي)، (ل: ذلقي)، (ذ: لثوي)، (ي: جوفي)، (ن: خيشومي)، (ك: لهوي)، (ف: شفهي)، (ر: ذلقي)، (و: لهوي)، (ل: لثوي)، (ي: لهوي)، (ز: لثوي أسناني)×، (ل: ذلقي)، (ق: لهوي)، (و:لهوي)، (ن: ذلقي)، (ك: لهوي)، (ب: شفهي)، (ء: حلقي)، (ب: شفهي)، (ص: لثوي أسناني)، (ا: جوفي)، (ر: لثوي)، (هـ: حنجري) (م: شفوي).

يتضح من خلال هذا التحليل أن الشرط الذي اشترطه علماء الأصوات في فصاحة الكلمة قد تحقق. وذلك لأن المخارج في النموذجين جد متباعدة: ويمكن أن نقيس هذه النتائج التي توصلت إليها هنا على مجموع السورة.

ومن جهة أخرى لاشك في أن صفات الحروف ومخارجها تناسب الموضوعات التي تتناولها السورة؛ ذلك أن النظم القرآني يراعي في توزيع الأصوات وتأليفها المعاني والأغراض، ونوع التأثير الذي يريد إثارته في نفوس المتلقين. هكذا نجده يشتد في مقامات الوعيد والترهيب والإنذار، ووصف ما يتعرض له المجرمون من غضب، وتصوير عذابهم في اليوم الآخر. كما يتلطف الخطاب القرآني في مقامات الترغيب والتسلية والتلطف، وذلك في مخاطبة أحوال المؤمنين في جنات النعيم، وفي ذكر قصص الأنبياء المخلصين. تلك طبيعة الأصوات في القرآن «إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة» [٢٩٢]. وسنتتبع هذا الجانب بشيء من التفصيل من خلال التحليل السياقي، الذي سندرس فيه التركيب الصوتي للسورة بشكل عام.

القسم الثاني من الفصل الثاني: ظواهر سياقية.

﴿ نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ

مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾:

قيل عن الحرف «ن» إنه فارسي، وأصله «أنون»[٢٩٣]. ويهمنا هذا الأمر، باعتباره يتصل بعلم الألسنية الحديث ويسمى استعارة[٢٩٤] emprunt.

تشكل الآيات وحدة صوتية متناغمة منسجمة وقد حققت هذه الوحدة بعدة وسائل منها:

كثرة المقاطع الطويلة والمقاطع المتوسطة[٢٩٥] (نون، رون، ما، نون...)، وهي امتدادات تساهم في خلق تجاوب بين البنية الإيقاعية والبنية الدلالية؛ ذلك أن هذا الصنف من المقاطع يتكرر – غالباً كما تؤكد ذلك بعض الدراسات – في المواقف الانفعالية والعاطفية. وهذا ما يتلاءم مع هذه الآيات، التي يتجه فيها الخطاب إلى تقوية النبي – عليه الصلاة والسلام – وتأسيته وتثبيته.

نلاحظ أيضاً على المستوى الإيقاعي نوعاً من التجانس في نهايات الآيات. فبالإضافة إلى الفاصلة هناك ما يسميه الباقلاني «الترصيع»[٢٩٦]؛ فكلمتا «مجنون» و«ممنون» متشابهتان في الرنة الصوتية.

نلاحظ تراكماً صوتياً لبعض الحروف: النون والميم بخاصة. وعلى الرغم من أن هذه الظاهرة تعم نسبياً السورة بأكملها، مع ذلك، يبقى ترداد حرفي النون والميم لافتاً للنظر. ومقارنة سريعة بين هذه الآيات والآيات اللاحقة توضح ذلك.

ونظراً لما يتميز به هذان الحرفان من خفة على اللسان، فإن ذلك يضفي على الآيات نوعاً من الرقة والليونة.

يشكل النبر أيضاً مستوى من مستويات التجانس الصوتي الذي نجده في الآيات: ذلك أن الآيات تبدأ كلها بكلمة أو بصيغة تتكون من مقطع واحد في الآيات الثلاث الأولى: (نون: مقطع طويل. ما: مقطع متوسط. إن: مقطع طويل). وإذا استعملنا القاعدة الأولى[٢٩٧] من قواعد النبر فإننا سنجد في الآيات تماثلاً إيقاعياً يتجلى في تكرار النبر عند بداية كل آية.

﴿ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ

وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾:

تقدم الصورة الإيقاعية لبعض الألفاظ في الآيات انطباعاً خاصاً: «فستبصر ويبصرون» و «ودوا لو تدهن فيدهنون». باستطاعتنا أن نستعير أحد مفاهيم علم الأصوات الحديث وهو مفهوم «الأنا كرام»[٢٩٨] – الذي يجعل لبعض الأصوات قيماً ذاتية معينة – لنرى في ضوئه الدلالة الذاتية التي يمكن أن تحملها بعض الحروف في الآيات. الحرف البارز في قوله «فستبصر ويبصرون» هو الصاد: وهو حرف مفخم مطبق، وقد تنبه ابن جني، منذ القديم، للقيمة التعبيرية لصوت الصاد فجعل حرف الصاد أقوى من حرف السين مثلاً؛ لما فيه من أثر مشاهد يرى مثل الصعود إلى الجبل والحائط، والصاد أقوى من السين أيضاً لما فيه من استعلاء [٢٩٩]. يكاد هذا اللفظ – حرف الصاد المشار إلى خصائصه – يرسم في الذهن صورة النفاذ والعمق التي تطبع نظراتهم.

أما لدى تلاوة الآية: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ فإن الأذن ترتطم بهذه الدالات الساكنة المتكررة، التي تلقي في الحس حقيقة دلالة الإدهان والمداراة.

الإيقاع[٣٠٠] في هذه الآيات – وكذلك في الآيات السابقة– متشابه تقريباً، فهو إيقاع طويل الحركة بصفة عامة، رخي الموجة، ينساب هادئاً متدرعاً بالشفافية والرقة. وهذا ما يتناسب مع الجو العام للآيات: وهو جو الإيناس، والتسرية، والتعويض عما كان يلاقيه الرسول ﷺ من أعداء الدعوة.

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾:

تحقق الآيات تناغماً صوتياً بديعاً، كيف يمكن تفسير ذلك؟

هناك – أولاً – التجانس العروضي في الألفاظ: وهو ما يسمى الجناس الازدواجي:

فالكلمات (حلاف، همار، مشاء، ومناع) متساوية في الأداء الصوتي: فهي

جميعاً على صيغة «فعال» ؛ لذلك فهي تتكون جميعاً من ثلاثة مقاطع متوسطة: (مقطع متوسط + مقطع متوسط + مقطع متوسط).

وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلمات: (نميم، أثيم، زنيم، بنين) على صيغة فعيل: مقطع قصير + مقطع متوسط + مقطع متوسط.

وتبقى الكلمات الأخرى لا تخرج في عمومها عن هذه الرنة الصوتية.

الحديث عن التجانس الصوتي في الآيات يفضي بنا إلى الحديث عن خاصية أخرى توحد بين الآيات: فكما هو ملاحظ من التحليل المقطعي السابق، أن تلك الألفاظ تنتهي جميعاً بمقطعين متوسطين، وإذا استعملنا القاعدة الثانية من قواعد النبر، التي تقرر أن النبر يقع على المقطع ما قبل الأخير إذا كان متوسطاً، فإننا سنجد في الآيات تماثلاً إيقاعياً يتمثل في تكرار النبر في الموضع نفسه من كل كلمة.

أيضاً ثمة ظاهرة لافتة للنظر، إذا نظرنا إلى الآيات على مستوى الحركات: إذ إن أغلب الكلمات تنتهي بالكسرة. وهي ظاهرة مثيرة؛ خاصة إذا علمنا أن حركة الكسر أقل وروداً في القرآن من أختيها الفتحة والضمة: لقد توصل أحد الباحثين – من خلال دراسة إيقاعية لسورة البقرة– إلى أن نسبة ورود الفتحة فيها ٤ ,٥٤٪، ونسبة ورود الضمة ٨ ٢٤٪، في حين نسبة ورود الكسرة لم تتجاوز ٨ ٢٠٪[٣٠١].

كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة؟

أشرت في حديثي عن التركيب النحوي للآيات إلى تنكير الكلمات، الذي فسرته – من خلال نظرية علم المعاني– بالتقليل والتحقير من شأن الموصوف، فهل لهذه الظاهرة وجه في علم الأصوات؟

يجيب عن ذلك علم الأصوات الحديث أن حركات الكسر تدل عموماً على اللطف والصغر[٣٠٢]. فالغرض من الكسر هنا هو تحقير الموصوف. وقد تعرض الرافعي في حديثه عن «إعجاز القرآن» لتوزيع الحركات الصرفية واللغوية في نظام الآية القرآنية، وقد أشار إلى أن هذه الحركات «تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها بعضاً، ولن تجدها إلا

مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي»[٣٠٣]

يمكن الوقوف هنا عند لفظ «عتل»، وما في هذه الكلمة من كزازة؛ وذلك لتوالي حركتي الضمة الثقيلة على العين والضمة على التاء، فضلاً عما في الحرف الأول من ثقل ونبو على اللسان. من المهم الوقوف عند الدور الوظيفي لهذا اللفظ، بطبيعته الصوتية المشار إليها: فالكلمة تمثيل مشخص لهذا الإنسان الغليظ الجافي المتنطع. واللفظ في هذا المقام يؤدي معنى لا يؤديه لفظ آخر[٣٠٤].

لا يخلو التضعيف الذي يظهر على بعض الألفاظ هو الآخر من دلالة: حلاف، هماز، مشاء، مناع . فهو يزيد معاني الألفاظ قوة، وذلك... «لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني» على حد تعبير ابن الأثير[٣٠٥].

إذا راعينا طريقة النطق بالأصوات – أي ما يسمى في التحليل الألسني الحديث الأسلوبية الصوتية[٣٠٦] – يمكن الوقوف لدى بعض التغيرات التي تلحق الألفاظ في النطق، مستفيدين في ذلك من علم التجويد:

فنون التنوين في «حلاف» و«هماز» و«مناع» تدغم مع الحروف الأولى للألفاظ التي تأتي بعدها. وهي – بالترتيب – «مهين» و«مشاء» و«للخير». وهو ما يعرف في علم التجويد بالإدغام [٣٠٧] .

كما تقلب الباء في «بنميم» و «بعد» ميماً في قوله تعالى: «...مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم»، ويعرف هذا بالقلب [٣٠٨].

صفوة القول إن الموسيقى الغالبة على الآيات سريعة الحركة، حادة النبرة، تنسجم مع الجو العام الدرامي الذي يطبع الآيات.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم

مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

على مستوى التجانس الصوتي هناك ما يسميه البلاغيون «تجنيس الزيادة والنقص»: (بلوناهم، بلونا)، (طاف ، طائف) ، (ليصرمنها، الصريم) ، (تسبحون، سبحان).

كما يلاحظ أيضاً تجانس عروضي في الكلمات : نائمون، مصبحين، صارمين.

فهي تتكون كلها من (مقطع متوسط + مقطع قصير + مقطع طويل). يلاحظ في الآيات الأولى من القصة تراكم صوتي لبعض الأصوات الصفيرية: الصاد والسين، وأيضاً بعض الأصوات الشديدة الرخاوة كالتاء والثاء: (أصحاب ، أقسموا، ليصرمنها، يستثنون، فأصبحت، كالصريم، مصبحين، صارمين...).

حتى إن القراءة السريعة المتتالية لتلك الآيات الأولى تحدث على اللسان نوعاً من الوسوسة التي تكون في الخفاء.

على أن الملاحظ – بصفة عامة – على تلك الآيات، هو غلبة الحروف المهموسة، على عكس الآيات الأواخر من القصة التي تشيع فيها الحروف المجهورة.

وهذا أنسب للجو العام الذي كان يتحرك فيه أصحاب الجنة: إذ نجدهم – في بداية القصة – يتحركون في الخفاء فيهمس الكلام، وتخفت الأصوات. في حين يتغير هذا الجو حين تنكشف الحقيقة فيجهر الصوت ويرتفع الكلام.

ولن نتجشم كد الذهن وعناء اليد لإحصاء خصائص الأصوات، بل يمكن إثبات ذلك من خلال المقابلة بين لفظين، يمثلان الحالتين: «يتخافتون» و «يتلاومون» يحيل اللفظان على حقل دلالي واحد، هو الكلام. لكن فيهما تمثيلاً لحالتين مختلفتين من ناحية الأداء الصوتي:

إذ نجد أغلب أصوات الكلمة الأولى مهموساً (التاء– الخاء– الفاء– الثاء)، هذه الطبيعة الصوتية مناسبة للحالة التي كان فيها أصحاب الجنة يعملون في الخفاء،

ويهمسون الكلام همساً.

في حين نجد المادة الصوتية للفظ الثاني: «يتلاومون» ذات طبيعة أخرى؛ إذ نكاد نسمع منها صوت الجلبة والضوضاء؛ وذلك بسبب حروفه المجهورة: (الياء- اللام- الواو - الميم - الواو - النون). أيضا هذه الخصائص الصوتية مناسبة للحالة التي كانوا عليها بعد أن رفع الستار، وظهرت الحقيقة، وبدؤوا في التراشق بالألفاظ والعبارات.

من بين الملاحظات التي يمكن تسجيلها أيضاً، تكرار المقطع «نا» في الآيات الأواخر من القصة: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ ﴾.

يضفي هذا المقطع على النص طابع الأسى والشجى، كما نلمس فيه رقة الاستعطاف، وذلك من خلال موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة.

وهذه ظاهرة عامة في مثل هذه المواقف، ولعله أسلوب من أساليب الزلفى وابتغاء الوسيلة إلى الله – عز وجل – : انظر مثلاً كيف يتكرر هذا المقطع في دعاء «أولي الألباب» الذين ذكرهم الله – عز وجل – فى سورة «آل عمران» : ... ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (٣٠٩).

هذه الظاهرة الصوتية في الآيات جد حسنة، خاصة إذا أخذناها من زاوية علم التجويد، أو ما اصطلح عليه بالأسلوبية الصوتية: حيث يمكن ملاحظة عدة ظواهر:

فهناك الإدغام بغنة وهو كثير جداً في الآيات، أسوق بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر: ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ ﴾، ﴿ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ﴾، ﴿ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾، ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾.....إلخ.

وهناك الإخفاء في: ﴿ فَنَٰدَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ

صَٰدِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾. بصفة عامة، في القصة إيقاع خفيف ينساب متموجاً رخياً، وهذا ينسجم مع الطابع الدرامي العام للآيات.

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ :

في الآيات جدال مع الكفار؛ لذلك فإن أول ما يلفت النظر هو تكرار ألفاظ: (العذاب)، (أم لكم)، (إن)، (شركاء).. وكثرة التكرار يراد به في الغالب تقوية المعاني[٣١٠]. إذ إنه كلما تشابهت البنية اللغوية، كانت أكثر مدعاة للتقرير وتبليغ الرسالة عن طريق الإعادة.

ثم لاحظ الطباق في قوله تعالى « . أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ»، وذلك في التقابل الضدي بين «المسلمين» و «المجرمين»، وهما متوازيان في إيقاعهما العروضي والصرفي، لذلك يسلك هذا الطباق مسلك طباق الازدواج[٣١١].

من حيث الأسلوبية الصوتية يمكن الحديث عن بعض الظواهر، كالإدغام في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ، ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾. وهناك الإخفاء في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ ، ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

الآيات تصوير حسي لليوم الآخر، لذلك نلاحظ غلبة بعض الأصوات الخشنة التي فيها نبو على اللسان: بعض حروف القلقلة والتفخيم والإطباق (القاف، الجيم، الصاد، الهاء...). على أن هناك ألفاظاً فيها تمثيل غليظ لحقيقة العذاب الذي سيلحق الكفار،

وذلك بما يلقيه جرسها على الحس من هول مريع، حين يشمر على الساق ويبدأ الجد. ونجد ذلك في ألفاظ (خاشعة، ترهقهم، فذرني، كيدي، متين، مثقلون...).

وبهذا التهديد العنيف في ألفاظ قوية فخمة، يبلغ السياق من النفس مبلغها، وقد ارتعش الحس وتهيأ للاعتبار.

ملاحظة أخرى لا تخرج عما نحن بصدده: إن المتفحص للكلمات في النص يلاحظ بعض الكلمات الطويلة (يستطيعون، سنستدرجهم، سالمون، يعلمون...).

وقد برزت هذه الظاهرة فقط مع هذا الاستعراض المشخص لأهوال اليوم الآخر[٣١٢].

صحيح لقد وردت في السورة – في مواضع أخرى– كلمات طويلة، مثل: يستثنون، يزلقونك.... لكنها لم تجتمع بهذه الكثرة في مقطع واحد، كما اجتمعت في هذا المقطع.

منذ القديم اعتبر البلغاء طول الكلمات مخلاً بفصاحة الكلمة، واشترطوا «أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن الفصاحة» [٣١٣]، على حد تعبير ابن سنان الخفاجي. كما يؤكد المحدثون أن الشائع من الكلمات الفصيحة لا يتجاوز أربعة أحرف في الأفعال[٣١٤].

ولكن يلوح لي أن الظاهرة هنا تتصل بالجو الذي تطرقت إليه؛ وهو جو الوعيد والإنذار والتهديد واستعراض أحوال اليوم الآخر. وبذلك يكون هذا الجو العام قد تحقق بوسيلتين: ما في النص من حروف وألفاظ، بخصائصها الصوتية المشار إليها في السياق، ثم ما في النص أيضا من كلمات طويلة.

إذا ما راعينا كيفية النطق بالأصوات، فإنه يمكن لنا أن نحصل على الظواهر الصوتية التالية:

هناك الإدغام بغنة في قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾. كما أدغم الميمان في: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وهناك الإخفاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾. وأخيراً الإظهار في: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

بصفة عامة، إيقاع الآيات إيقاع طويل الحركة يتحرك طولاً وعرضاً لرسم ذلك الهول المفزع. وتظهر فيه هذه المدات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآيات.

هكذا تنحو هذه الموسيقى الداخلية المنبعثة من الألفاظ منحى طبع الجو العام للآيات بطابع الشجي والأسى.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

تستقل بعض الألفاظ في الآيات لتلقي بجرسها انطباعاً خاصاً على الحس، يتعلق الأمر بلفظي: مكظوم، يزلقونك بخاصة.

اللفظ الأول «مكظوم» في جرسه الغليظ، وحروفه المتنافرة لتوالي الحرف الساكن الشديد «الكاف»، والحرف المفخم المطبق «الظاء»، حتى إن اللسان ليكاد يتعثر في نطقه. لكنه في ذلك كله أنسب لتصوير حالة النبي يونس عليه السلام وهو يصارع الموت في بطن الحوت. ولو أننا استبدلنا بذلك الحرف مرادفاً له، لخف الجرس ولضاع الأثر المنشود.

كذلك الأمر بالنسبة إلى «يزلقونك»؛ إذ في نطقها يبرز حرف الزاي الساكن: وهو حرف مجهور شديد صفيري، وكذلك الحرف المطبق المفخم الشديد «القاف». تعكس هذه المادة الصوتية للكلمة – تماماً – حقيقة نظراتهم التي تزل وتزلق، وهي في الوقت نفسه، تكشف عن ذلك الشعور بالغيظ المحموم وبالحسد العميق، الذي كانوا يسرونه للرسول، عليه الصلاة والسلام.

من حيث التجانس الصوتي، نلمس في النص تقارباً في الرنة الصوتية لبعض الألفاظ، حيث تحقق الجناس الازدواجي في كلمات «مكظوم»، «مذموم» و «مجنون». هذا بالإضافة إلى ما يلاحظ أيضا من هذا التجانس على مستوى الحروف.

من حيث الإيقاع العام للآيات، يعود الإيقاع هادئاً رقيقاً كما بدأ، وبذلك يتآخى

مطلع السورة مع ختامها، وتلك هي طريقة القرآن الكريم: «فإن كان إنذاراً كان النغم رعداً، وإن كان تبشيراً كان نسيماً، وإن كان عظة كان تنبيهاً، وإن كان تفكيراً كان توجيهاً لافتاً عما سواه وهكذا»[٣١٥].

الفصل الرابع
القصة

قصة «أصحاب الجنة» كما وردت في سورة القلم:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

القصة القرآنية ليست عملاً فنياً طليقاً كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة. وإنما هي وسيلة – من وسائله المختلفة – لتقرير أغراض دينية. يلاحظ هذا الأمر حتى من حيث الدلالة اللغوية: ذلك أن كلمة «القصص» في القرآن الكريم ترجع في أصلها اللغوية إلى «القص» وهو تتبع الأثر:

- ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٣١٦).
- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٣١٧).

« فالقص للآثار مثل رفع البصمات ليستدل منها على ورائها من أحداث مضت وليمسك بما قدر على إمساكها منها» (٣١٨).

وغاية ذلك ليس نقل أخبار الأمم السابقة فحسب، بل أيضاً مد الجسور حتى تكون هذه القصص «الصورة الحية للقاء بين ماضي الرسالات وحاضرها؛ مما يجعل التجارب جاهزة للتطبيق العملي في حياتنا الرسالية» (٣١٩).

أخلص بعد هذا إلى الحديث عن القصة التي تهمنا، وهي قصة «أصحاب الجنة»[٣٢٠].

وهي قصة عرضت فقط في سورة القلم، ولعلها ظاهرة تخرج عن مجمل القصص القرآني؛ إذ إن أغلبه تكرر عرضه في القرآن الكريم مرتين أو مرات. فقصة موسى – عليه السلام – مثلاً وردت في ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم.

ما وظيفة هذه القصة وما مناسبتها لما قبلها؟

يجيب عن هذا السؤال الإمام الفخر الرازي بكلام مضمونه على النحو التالي:

المقصود من ذكر القصة أمران: **أحدهما**: أنه تعالى قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي لما أعطاه المال وبالبنين كفر بالله، إنما الله تعالى أعطاه ذلك للابتلاء، فإذا صرفه إلى الكفر دمره الله. بدليل أن أصحاب الجنة لما عصوا أمر ربهم دمر الله جنتهم.

الثاني: أن أصحاب الجنة أرادوا أن يستأثروا بخيرات الجنة ويمنعوا الفقراء فقلب الله عليهم القضية كما أن أهل مكة خرجوا لبدر حالفين على أن يفتكوا بمحمد ﷺ فأخلف الله ظنهم فأسروا وقتلوا مثل أهل الجنة»[٣٢١].

الأمر الثاني الذي أشار إليه الإمام الفخر الرازي بعيد الاحتمال لسبب بسيط، وهو أن يوم بدر كان في السنة الثانية للهجرة، وذلك بعد أن نزلت سورة القلم بنحو خمس عشرة سنة[٣٢٢]، ويبقى الأمر الأول صحيحاً إلى حد ما. لكن مع ذلك يبدو أن هذا الأمر جزئي ربطه الإمام الفخر الرازي بآية واحدة فقط، هي قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. في حين أن السورة تشكل بنية متداخلة تترابط فيها الآيات، ويلتحم فيها مطلع السورة مع الوسط والخاتمة. فهي تهدف في عمومها إلى التسرية عن الرسول ﷺ، وإزالة الوهن الذي قد يكون علق بنفسه بسبب الأراجيف التي كان يطلقها خصوم الدعوة الإسلامية في ذلك الحين. وبذلك تنحو السورة منحى تربوياً بتأكيد وجوب الاتصال الدائم بالله.

إن سبب الابتلاء يرجع إلى إغفال أصحاب الجنة عن ذكر الله. وهذا واضح من السياق

في قوله تعالى: «ولا يستثنون». أيضاً في قول أوسطهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾. من هنا تأتي هذه القصة لتقرير حقيقة المصير الذي انتهى إليه هؤلاء الذين نسوا ذكر الله، ولتؤكد – في الوقت نفسه – للرسول ﷺ وجوب الالتزام بهذا الأمر. وحتى يتضح الأمر أكثر أقول: إن المناسبة التي دعت إلى عرض هذه القصة هي المناسبة نفسها التي دعت إلى عرض قصة «يونس» في آخر السورة: فيونس أنقذ من بطن الحوت أيضاً لأنه ذكر ربه: ﴿نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾. هذا النداء تفسره آية في سورة الصافات بالتسبيح: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ (٣٢٣).

من هنا يمكن القول إن السبب واحد في ذكر القصتين: وهو إعطاء العبرة لوجوب الاتصال المستمر والدائم بالله، ولا فرق بين القصتين سوى أن «يونس» – عليه السلام – كانت لديه فرصة الرجاء فتاب وأناب، أما أصحاب الجنة فقد فاتتهم فرصة الرجاء ولات حين مناص.

إلى هنا أكون قد استوفيت الحديث عن قصة أصحاب الجنة في شكلها الخارجي وفي علاقتها بالغرض الذي سيقت من أجله. لكن ثمة مباحث أخرى أهم، هي التي تقربنا أكثر من الناحية الفنية للقصة. وهذا ما سنراه من خلال تحليل العناصر الفنية للقصة. وهي: الأحداث، والشخصيات، الحوار، الزمان والمكان.

الحدث:

أول ما يمكن ملاحظته على عنصر الحدث في قصة أصحاب الجنة أنها لا تعرض بداية الأحداث؛ لأنها عرضت فقط بالقدر الذي يتطلبه المقام الذي جاءت فيه. فهي «تسكت» عن حلقات أخرى قبلها، ويجد القارئ نفسه مباشرة مع «أصحاب الجنة»، وقد أعدوا عدتهم وأخذوا أهبتهم لصرم الجنة. أما ما تتحدث عنه كتب التفسير عن ماضي الجنة وأصحابها فلا تذكره القصة(٣٢٤).

ولعل هذه الخاصية هي نتيجة لما أشار إليه بعض الدارسين من كون القصة القرآنية تخضع للغرض الديني(٣٢٥).

من حيث طبيعة سير الأحداث نلاحظ في النص وجود فجوات فاصلة بين حدث وآخر. وهذه ظاهرة فنية تطرد في القصص القرآني بصفة عامة. وقد اعتاد القرآن الكريم أن يملأ هذه الفجوات بما يرد في القصة الواحدة من تفاصيل في سور أخرى.

وبما أن قصة «أصحاب الجنة» ذكرت فقط في هذه السورة، فإنها تترك المجال للخيال يملؤها بما يطفو على الذهن من مشاهد وصور.

منذ البداية يتضح لنا هذا الأمر: فقد أقسم أصحاب الجنة على أن يصرموا جنتهم في الصباح، ومباشرة تتحدث الآيات عن هذا الطائف، الذي طاف عليها في الليل وتركها كالصريم.

وتتعدد بعد ذلك الفجوات بين حدث وآخر. بل قد لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إن القصة في عمومها كلها تنحو هذا المنحى [٣٢٦]:

فالمشاهد تتوالى فيها بسرعة كبيرة. ويبقى الخيال دائما متحركا مع القصة لالتقاط الأحداث المتفرقة وسد الفجوات... وهي ظاهرة فنية فريدة بدون شك.

هذه الأحداث ذات طبيعة مختلفة: فهي مادية تارة ونفسية أخرى.

في البداية، يلاحظ بعض التركيز على الحدث المادي: فما يكاد عرض القصة يبدأ حتى ينقلنا السياق إلى مسرح الأحداث، حيث أصحاب الجنة وقد أصروا على الاستئثار بأطايب جنتهم، دون أن يتركوا شيئاً منها لفقير أو مسكين. ثم تتوالى الأحداث – المادية طبعاً – بعد ذلك: من طوائف الطائف، إلى تناديهم في الصباح، ثم الانطلاق لصرم الجنة، ليجدوا أنفسهم أمام المفاجأة: لقد وجدوا جنتهم الموقرة بالثمار خاوية على عروشها.

إلى هنا يطفو الحدث المادي على ما عداه، ثم يبدأ السياق بعد ذلك، في التركيز على الحدث النفسي: من تلاوم القوم، وتراشقهم بالاتهامات، وإقرارهم بالخطيئة، ثم التوبة والإنابة إلى الله في الأخير. عساه يعوضهم عن جنتهم الضائعة جنة أخرى.

الشخصيات في القصة:

نتعرف الشخصيات من خلال أحداث القصة، ولا تذكر معلومات أخرى خارجية عن هذه الشخصيات، مثل الأسماء وما يتعلق بها. وهي ظاهرة تكاد تكون عامة في قصص القرآن الكريم. فحين يكون الغرض هو التأكيد على حادثة بعينها، يترك ما سواه. لذلك أقر مع الدكتور محمد أحمد خلف الله:

«إن القصص الذي يقصد فيه إلى التأثير بالأحداث تبرز فيه الحادثة ويختفي ما عداه ومما يختفي الأسماء والشخصيات» [٣٢٧].

على أن الطائف الذي طاف على الجنة وصرمها، هو أيضاً شخصية صانعة للأحداث. ويمكن أن أستعير من صاحب كتاب «سيكولوجية القصة في القرآن» مصطلح «القدر» [٣٢٨] لهذا الطائف الذي هو بمثابة قوة فاعلة بارزاً في مجريات الأحداث.

الحـــــوار:

يشكل الحوار في القصة الوعاء الحامل لكثير من أحداث القصة، فأغلبية الأحداث – خاصة في القسم الأخير – لانتعرفها إلا من خلال ما دار بين الشخصيات من حوار. إذن طريقة القصة هنا هي طريقة الحوار[٣٢٩].

ولعل هذه الطريقة هي أجدى في محاولة تبسيط الفكرة من جميع أوجهها؛ لأن كل طرف من أطراف الحوار يحاول أن يثير الجانب الذي يؤمن به.

وهناك نقطة أخرى يتميز بها الحوار في القصة. وهي أنه يجسد الموقف أمام القارئ فيشعر خلاله بالحياة المتحركة التي تنتقل من موقف إلى موقف، ومن جو إلى آخر. ويعيش مع الأحداث الماضية وهو مندمج في القصة، ويشعر بما تشعر به الشخصيات. والحوار الذي نقصده هنا هو حوار دائر بين الشخصيات[٣٣٠].

والمتتبع للحوار في القصة يلاحظ أنه التزم أيضاً طريقة «الأسلوب الحضوري»: وعادة ما تظل شخصية القاص – في مثل هذا الأسلوب– حاضرة. تمسك

بالشخصيات، وتأخذ ما على ألسنتهم من كلام، وتسوقه مسبوقاً بكلمة: قال فلان أو قالت فلانة، على عكس الأسلوب الغيبي، الذي تختفي معه شخصية الكاتب، فلا يظهر له ظل، ولا يحسب له أي حساب، في سير الأحداث. وهكذا نجد في القصة كلمة «قال» تتكرر عدة مرات.

لذلك نلاحظ أن قصة أصحاب الجنة، في مسلكها الأسلوب الحضوري، لا تخرج عن عموم ما نلاحظه على القصة القرآنية في هذا المجال. هذه الطريقة تشعرنا بأننا نسمع أخبارا قد ذهب أشخاصها في التاريخ، وإنما هي في بعث جديد. «وهذا ما يليق بمقام القرآن، وبجلاله؛ حيث يرتفع مقامه وجلاله عن أي شائبة تمس الحق الذي نزل به، أو تعلق به»[٣٣١]. على عكس الأسلوب الغيبي الذي لا يدخل على النفس منه إلا الشك والارتياب.

الزمان والمكان في القصة:

الزمن في القصة زمن مطلق من كل قيد. فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نعرف كم بيننا وبين زمن وقوع القصة [٣٣٢]. ذلك أن قرب هذا الحدث أو بعده منا، في أي زمن من الأزمان لا يؤثر فيما يحمله الحدث من مواقع العظة والاعتبار، إذ هو قائم على الطريقة الإنسانية، موصول بما في الإنسان من نوازع الخير والشر التي لا تتغير في أجيال الناس، والتي لا تختلف في زمن عن زمن» [٣٣٣].

لكن مع ذلك هناك ما يمكن أن أسميه «الزمن الداخلي» في القصة؛ يتعلق الأمر هنا بالألفاظ التي تحمل دلالة الزمن.

يمكن ملاحظة ذلك منذ بداية القصة، في إلحاح أصحاب الجنة على صرم جنتهم «مصبحين»، هذا العنصر يضيء بعض الجوانب في أحداث القصة. فكونهم اختاروا الصباح الباكر لم يكن اعتباطاً، بل ينسجم مع روح الأثرة التي استحكمت في قلوبهم.

يمكن تسجيل الملاحظة نفسها على بعض الألفاظ الأخرى، مثل قوله تعالى:

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾، بملحظ من «الطواف» الذي لا يكون إلا في الليل.

عنصر المكان أيضاً غائب في القصة. وإن كانت التفاسير تحدده: في اليمن أو الحبشة، بحسب الاختلاف بين المفسرين.

صفوة القول: عناصر الزمان والمكان ليس لها حضور بارز في القصة التي بين أيدينا.

والقصة في كل هذا لا تخرج عن عموم ما يمكن ملاحظته في ذلك على القصص القرآني.

ولعل هذه الظاهرة – وهي ظاهرة إهمال القصص القرآني لعنصري الزمان والمكان بالإضافة إلى الخصائص الأخرى التي ذكرتها في السابق – هي التي دفعت أحد الباحثين في موضوع القصص القرآني إلى تأكيد وجود الكثير من ظواهر «الحرية الفنية»[٣٣٤] في القصص القرآني. هذا ما قاله الدكتور محمد أحمد خلف الله* !

الألفاظ المنتقاة بدقة وعناية تامة، التعابير البلاغية، الصور الحركية المشخصة إضافة إلى القصة بعناصرها الفنية الخاصة: ذلك هو الإطار الفني الذي تتحرك على مستواه السورة.

خاتمة:

إن الإطار الفني العام للسورة يكشف عن دقائق وعجائب لا تتهيأ لنص آخر أبداً. ولا أجد كلمة أليق من هذا الوصف الجامع المانع الذي قيل في القرآن قديماً وحديثاً: إنه الإعجاز. كل شيء في السورة بميزان: حروفها في كلماتها في جملها، جملها في تراكيبها المختلفة... كل شيء يوحي بهذا التفرد وهذه الخصوصية التي يتميز بها النص. وكأن اللغة العربية – على سعتها – ضاقت حتى ليس فيها لمعانيه غير هذه الحروف وهذه التراكيب بأعيانها.

وسورة القلم في ذلك كله ليست إلا غيضاً من فيض وقطرة من بحر، هو القرآن الكريم كله، المعجزة البيانية الخالدة. وقد أقر بهذا الإعجاز قوم كانوا يعكفون على البيان كما يعكفون على الأصنام، ويسجدون له سجدات خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم، لأنهم «كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان. وقد سمعنا بمن استخف منهم بأوثانهم ولم نسمع قط بأحد منهم استخف ببيانهم»[٣٣٥].

لكن ليت شعري أي بلاء أصاب أبحاثنا اليوم: إنه لما يحز في النفس أن نذكر أن دراستنا البلاغية والأدبية واللغوية بصفة عامة، تمضي اليوم بمعزل عن هذه المعجزة البيانية الخالدة.

لقد كان النص القرآني في يوم ما الشرارة التي فجرت الأبحاث في المجالات اللغوية والأدبية المختلفة: كل العلوم التي ظهرت، جاءت في الأساس لخدمة النص القرآني، ثم تتابعت العصور حتى أفضينا به إلى هذا العصر، الذي فصلت فيه هذه العلوم فصلاً يكاد يكون تاماً عن هذا المتن.

وإذ أذكر هذا، أضم صوتي إلى قائمة الأصوات التي نادت وتنادي بضرورة العناية بالقرآن الكريم في إطاره الفني والأدبي[٣٣٦].

أخيراً وليس بآخر: إن ما قمت به في هذا البحث المتواضع إنما أجملت تفصيلاً، وأتيت تحصيلاً؛ وذلك لأن القرآن الكريم إنما هو طريق مستبصر من أين

أخذت نفذت فيه، ومن حيث تأديت به تهديت.

وأرجو أن أكون بذلك كله قد بلغت الإفادة، إن قصرت عن الإجادة، وأن أكون قد أوفيت إن لم أكن قد استوفيت. وصدق الله العظيم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٣٣٧).

سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ

﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

الهوامش

١ – السيوطي، جلال الدين الشافعي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج ١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٣٩٩ هـ، ص٢٥.

٢ – المصدر نفسه، ج: ١، ص ١٧.

٣ – أبو حيان الأندلسي الغرناطي، **تفسير البحر المحيط**، ج: ٨، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٣ هـ، ص٣٠٥.

٤ – د. عبد الرحمن، عائشة، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ج:٢، القاهرة، دار المعارف، ١٣٨٨هـ، ص: ٣٩.

٥ – من المصادر التي راجعتها أذكر: **أسباب النزول** لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، بيروت، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ. أيضاً: لباب **النقول في أسباب النزول** لجلال الدين السيوطي، بيروت، لامط، لان، ١٩٧٨.

٦ – تفيض كتب السيرة في الحديث عما كان يلاقيه الرسول ﷺ في ذلك الوقت. انظر مثلاً: ابن هشام: **السيرة النبوية**، تح: محمد محيي الدين، مجلد:١، جزء:١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٣٧، ص ٢٧٤.

٧ – المصدر السابق، ص:٢٨٣.

٨ – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون ج:١، دار الجيل، بيروت، ب–ت، ص:٢٠.

٩ – أبو محمد عبد الله بن مسلم، ابن قتيبة،، **تأويل مشكل القرآن**، **تحقيق**: د. أحمد صقر، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨م، ص:١٠٩–١١٠.

١٠ – أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، إعجاز القرآن، القاهرة، دار المعارف،(بدون تاريخ)، ص: ١٧٣– ١٧٤.

١١ – حمد بن محمد الخطابي، **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** الكريم، ص: ٢٦.

١٢– أبو هلال العسكري، **الفروق اللغوية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٣، ص:١٣.

١٣ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات القرآن**، تحقيق: نديم مرعشلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بدون تاريخ النشر). ص: ن .

١٤ – أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥، ج:١٨– ص:٢٢٤.

١٥ – جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، بيروت، المكتبة الثقافية، ١٩٧٣.

١٦ – ابن القيم الجوزية، **التبيان في أقسام القرآن**، ص:٢٠٤.

١٧ – د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ص:٤٢.

١٨ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص:٤٢٨.

١٩ – محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج: ١٤، ص: ٦٠.

٢٠ – انظر في هذا المعنى:

– ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، جامع البيان عن تأويل القرآن، مج:٨– ص:١٣٦.

– ابن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، مج:١٤– ص:١٨.

– الفراء البغوي، **معالم التنزيل في التفسير والتأويل**،مج: ٥– ص: ٤٢٦.

٢١ – سورة الطور:١.

٢٢ – سورة الإسراء: ٥٨.

٢٣ – أبو محمد بن مسلم بن قتيبة، **تفسير غريب القرآن**، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت:١٣٩٨، ص: ٣٧.

٢٤ – سورة الأنعام: ٢٥.

٢٥ – سورة المؤمنون: ٨٣.

٢٦ – سورة المطففين: ١٣.

٢٧ – د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ج:٢– ص:٤٤.

٢٨ – ابن هشام، **سيرة النبي**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج:١، ١٩٨١، ص: ٣٨١.

٢٩ – – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص:٥٢٠.

٣٠ – المرجع نفسه، ص:٩٧.

٣١ – سورة آل عمران: ١٠٣.

٣٢ – سورة المائدة:١١.

٣٣ – سورة إبراهيم: ٣٤.

٣٤ – سورة الحج: ٥٦.

٣٥ – سورة الانفطار: ١٣–١٤.

٣٦ – سورة المطففين: ٢٤.

٣٧ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، ص: ٩٧.

٣٨ – الحجر: ٦.

٣٩ – سورة الشعراء: ٢٧.

٤٠ – سورة التكوير: ٢٢.

٤١ – سورة الصافات: ٣٦.

٤٢ – سورة الطور: ٢٩.

٤٣ – سورة الذاريات: ٣٩.

٤٤ – سورة الدخان:١٤.

٤٥ – سورة آل عمران: ١٩٩.

٤٦ – سورة النحل: ٩٦.

٤٧ – سورة الزمر: ١٠.

٤٨ – سورة الحديد: ١٩.

٤٩ – سورة الكهف: ٨٨.

٥٠ – سورة السجدة: ١٥.

٥١ – د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ج:٢، ص:٤٧.

٥٢ – سورة النساء: ٢٥.

٥٣ – سورة الطلاق:٦.

٥٤ – سورة القصص:٢٨.

٥٥ – سورة النساء: ٩٥.

٥٦ – سورة النساء: ١٦٢.

٥٧ – سورة الأحزاب: ٤٤.

٥٨– الزمخشري : **الكشاف**، ص ١٤١.

٥٩ – أحمد بن محمد بن منير الإسكندري، **الإنصاف في ما تضمنه الكشاف من الاعتزال**، (وهو كتاب طبع مع الكشاف). انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج.٤، ص ١٤١.

٦٠ – المرجع السابق.

٦١ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص ٤٩٥.

٦٢ – محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج. ١٤، ص ٦٣.

٦٣ – المرجع السابق.

٦٤ – د. عائشة عبد الرحمن، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ج:٢، ص: ٥٠.

٦٥ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص:٤٩٤.

٦٦ – أشار إلى هذه الظاهرة سميح عاطف الزين، **مجمع البيان الحديث، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠، ص:٨١٧.

٦٧ – سورة الاحزاب: ٤٤.

٦٨ – سورة النساء:٩٤.

٦٩ – سورة الصافات:١١٤.

٧٠ – سورة المدثر:٦.

٧١ – الحجرات:١٧.

٧٢ – البقرة:٢٦٢.

٧٣ – سورة البقرة:٢٦٤.

٧٤ – محمد: ٤.

٧٥ – ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج: ٨، ص ١٣٧.

٧٦ – انظر السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج:١، ص ٢٩.

٧٧ – الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج١٤، ص ١٨.

٧٨ – د.عائشة عبدالرحمن ، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ٢، ص:٥١.

٧٩ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص ١٥٨.

٨٠ – سورة الشعراء: ١٣٧.

٨١ – ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج:١، ص: ٢٥٣.

٨٢ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص: ١٥٩.

٨٣ – سورة الزخرف: ٣١.

٨٤ – سورة الشعراء: ٦٣.

٨٥ – سورة الحديد: ٢١.

٨٦ – محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج: ١٤، ص ٦٤.

٨٧ – عن ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج:١/ص: ٢٠١.

٨٨ – الإمام إسماعيل حقي البروسي، **تفسير روح البيان**، دار الفكر، مجلد:١٠، ص:١٠٧.

٨٩ – انظر في هذا المعنى:

– الطبري، **جامع البيان**، مجلد ١٤ ، ص ١٩.

– الفراء البغوي، **معالم التنزيل**، مجلد: ٥، ص ٤٢٩.

٩٠ – انظر في هذا المعنى:

– ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مجلد ٨٩، ص ١٣٩.

– القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج.١٨، ص ٢٢٩.

٩١ – د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ج٢، ص ٥٢–٥٣.

٩٢ – سورة النور : ٣١.

٩٣ – سورة السجدة:٢٧.

٩٤ – سورة الصافات:١٧٥.

٩٥ – سورة الملك:٦٧.

٩٦ – سميح عاطف الزين، **مجمع البيان الحديث**، تفسير مفردات القرآن الكريم، ص:٦٤٨.

٩٧ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص: ٣٨٥.

٩٨ – سورة الفرقان: ٢٠.

٩٩ – سورة التغابن: ١٥.

١٠٠ – سورة الأنبياء: ٣٥.

١٠١ – سورة طه: ٢٠.

١٠٢ – سورة ص:٣٨.

١٠٣ – سورة القمر:٥٤.

١٠٤ – الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٣٨٦.

١٠٥ – د. عائشة عبد الرحمن، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ج.٢، ص ٥٣–٥٤.

١٠٦ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، ص: ٣٠٦.

١٠٧ – سورة الإسراء: ٧٢.

١٠٨ – الراغب الأصفهاني، **معجم ألفاظ القرآن** ، ص: ٣٠٦.

١٠٩ – الطبري، **جامع البيان**، ج.٢٩، ص٢٠–٢١.

١١٠ – ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج.٨، ص ١٣٩.

١١١ – القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج.١٨، ص ٢٣٠.

١١٢ – سورة الأنعام: ٩٧.

١١٣ – سورة النساء:٩٨.

١١٤ – سورة البقرة: ١٨٠.

١١٥ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص: ٥٣٩.

١١٦ – سورة الأنعام: ٨٨.

١١٧ – سورة يونس: ٥٧.

١١٨ – الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٣٦.

١١٩ – الطبري: **جامع البيان**، ج ٢٩، ص ٢١.

١٢٠ – ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٨، ص ١٣٩.

١٢١ – القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٨، ص ٢٣١.

١٢٢ – الزمخشري، **الكشاف**، ج ٤، ص ١٤٢.

١٢٣ – سورة البقرة:١٠٩.

١٢٤ – آل عمران:٦٩.

١٢٥ – المؤمنون:٢٠.

١٢٦ – الراغب الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، ص: ١٧٥.

١٢٧ – أبو حيان الأندلسي الغرناطي ، **تفسير البحر المحيط**، ص : ٣٠٥، ج: ٨.

١٢٨ – ابن كثير، الإمام أبو النداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، (الأب : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع) ، ص : ٨٣، ج ٩.

١٢٩ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ص: ٧٧ ج : ٨٩.

١٣٠ – الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج:٣٠، ص : ٨٦.

١٣١ – المتنبي، **ديوانه**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر بدون تاريخ النشر، ص : ٥٧٢.

١٣٢ – أتعرض للقصة هنا من جانب التصوير فقط، أما القصة باعتبار عناصرها الفنية فسأتعرض لها بشكل مستقل.

١٣٣ – في هذا الجانب الخاص بالتصوير، استفدت مما أورد سيد قطب في كتابه: **التصوير الفني في القرآن**، ص : ٥٢ وما بعدها.

١٣٤ – الإمام الخطيب القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تح : محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠ه، ص: ٣٧١.

١٣٥ – سورة الأعراف: ١٦٨.

١٣٦– سورة الأنبياء : ٣٥.

١٣٧ – بحسب الاختلاف الموجود بين المفسرين في معنى الآية، كما سبق لي أن أشرت إلى ذلك.

١٣٨ – سميح عاطف الزين، **مجمع البيان، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم**: ص: ٤٩٧.

١٣٩ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج: ٢٩، ص: ٨٢،

١٤٠ – المرجع نفسه، ج: ٢٩، ص: ٨٣.

١٤١ – سورة آل عمران: ١٤.

١٤٢– سورة الأنعام: ١٣٨.

١٤٣ – محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **تفسير غريب القرآن** ، ص : ٤٧٩.

١٤٤ – وهذه ظاهرة تنبه إليها سيد قطب في كتابه: **التصوير الفني في القرآن**»؛ حيث أشار إلى أن هناك بعض ألفاظ تلقي على الحس حركة متخيلة. انظر فصل: التصوير الفني، فصل التخييل والتجسيم.

١٤٥ – الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج : ٣٠، ص: ٩٠.

١٤٦ – سورة البقرة: ١٤٣.

١٤٧ – سورة البقرة: ٢٣٨.

١٤٨ – محمد السيد مصطفى، **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية**، بيروت، مؤسسة الشباب الجامعية، ١٩٨١ م، ص: ٧٠.

١٤٩ – أبو الفتح عثمان ابن جني، **الخصائص**، ج:١، ص: ٣٠٠.

١٥٠ – محمد الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج: ٢٩، ص: ٩٤.

١٥١ – سورة الأنعام: ٩٤.

١٥٢ – سورة الإسراء: ٥٦.

١٥٣ – سورة القصص: ٦٢.

١٥٤ – سيد قطب، **مشاهد القيامة في القرآن**، بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٤هـ، ص: ٤٣.

١٥٥ – سيد قطب التصوير الفني في القرآن، ص: ٧.

١٥٦ – الزمخشري، الكشاف، ج: ٤ ، ص : ١٤٧.

١٥٧ – أبو حيان الأندلسي الغرناطي، **تفسير البحر المحيط**، ٣١٦، ج : ٨.

١٥٨ – الطبري، جامع **البيان في تفسير القرآن**، ص: ٢٧، ج: ٢٩.

١٥٩ – نقلاً عن الدكتور عبد الفتاح لاشين، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، أثره في الدراسات البلاغية، بيروت، دار الفكر العربي، ص: ٧٢.

يذهب هذه الوجهة كذلك ، الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ص: ٩٥، ج: ٣٠ والدكتورة عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **التفسير البياني**، ج: ٢ ، ص: ٦٩، كذلك الدكتور إبراهيم السامرائي، **من بدائع لغة التنزيل**، دار الفرقان مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤ هـ، ص: ٢٩٦.

١٦٠ – ديوان حاتم عبد الله الطائي، تحقيق أحمد رشاد، دار الكتب العلمية ١٤٠٦ هـ.

١٦١ – بيت ينسب إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، انظر: **جمهرة أشعار العرب**، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

١٦٢ – عبيد الله بن قيس الرقيات **ديوانه**، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت ١٩٥٨م، ص: ٨٧.

١٦٣ – مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوي ، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ،بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج: ١، ص: ١٦٨.

١٦٤ – سيد قطب، **مشاهد القيامة في القرآن**، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣، ص: ٥٨– ٥٩.

١٦٥ – محمد جمال الدين، القاسمي، **محاسن التأويل** ، ج: ١٥، ص: ٢٦٦.

١٦٦ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج:٢٩، ص: ١٠٢.

١٦٧ – سيد قطب، **مشاهد القيامة في القرآن**، ص: ٤٣.

١٦٨ المرجع السابق، ج: ٢٩، ص: ١٠٢.

١٦٩ – سورة آل عمران: ١٠٣.

١٧٠ – سورة الأحزاب: ٨.

١٧١ –محمد الطاهر ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج: ٢٩، ص: ١٠٢.

١٧٢ – عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٩٨هـ.

١٧٣ – ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، دار القلم، ١٩٧٨، ص: ٥٥٥–٥٥٦.

١٧٤ – أحمد مختار البزرة، **في إعجاز القرآن: دراسة تحليلية لسورة الأنفال – المحتوى والبناء**، دار المأمون للتراث، ط١: ١٩٨٨، ص: ٥٣٥.

١٧٥ – الإمام أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن زنجلة، **حجة القرآن**، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٤، ١٩٨٤.

١٧٦ – ابن القيم الجوزية، **التبيان في أقسام القرآن**، القاهرة: طبعة حجازي، ١٣٥٢هـ، ص:١.

١٧٧ – المرجع السابق، ص: ٢٠٧.

١٧٨ – الزمخشري،أبو القاسم جار الله، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تونس، ج:٤، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (دون تاريخ)، ص: ١٤١.

١٧٩ – د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ج: ١– ص:٢٥.

١٨٠ – المرجع السابق، ج:١– ص: ٢٤.

١٨١ – المرجع السابق، ج: ١– ص:١٠٣.

١٨٢ – المرجع السابق، ج:١– ص:١٢١.

١٨٣ – المرجع السابق، ج:٢– ص:٤٣.

١٨٤ – المرجع السابق، ج:٢– ص:٧٧.

١٨٥ – المرجع السابق، ج:٢– ص:٩٧.

١٨٦ – المرجع السابق، ج:٢– ١٢٥.

١٨٧ – المرجع السابق، ج:٢– ص:٤٤–٤٥.

١٨٨ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج:١٤– ص: ٦٢.

١٨٩ – ابن هشام، **السيرة النبوية**، مجلد:١، ص:٢٥٦.

١٩٠ – د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **من أسرار العربية في البيان القرآني**، ص:١٨– ٢٦ جامعة بيروت العربية، ١٩٧٢م.

١٩١ – سورة ق:٢٩.

١٩٢ – سورة البقرة:٨٥.

١٩٣ – سورة الأنعام:١٠٧.

١٩٤ – سورة الأحقاف: ٤٦.

١٩٥ – سورة المجادلة: ١٠.

١٩٦ – سورة البقرة: ٢٦٧.

١٩٧ – ابن الحاجب جمال الدين بن عمرو، **الأمالي النحوية** «أمالي القرآن الكريم»، ج: ١، تحقيق: هادي حسن حمودي، مكتبة النهضة العربية ١٩٨٥، ص: ١٢٣–١٢٤.

١٩٨ – ا بن هشام، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: د.مازن المبارك، ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، بيروت، ط٦: ١٩٨٥، ص: ٤٩٠.

١٩٩ – محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، ج:١٥، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨ه، ص:٢٥٢.

٢٠٠ – ابن هشام، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر، ط٦: ١٩٨٥م، ص: ٥٦٦.

٢٠١ – الزمخشري،أبو القاسم جار الله، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تونس، ج:٤، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (دون تاريخ)، ص: ١٤٣.

٢٠٢ – أبو حيان الأندلسي الغرناطي، **تفسير البحر المحيط**، ص : ٣٠٥، ج: ٨.

٢٠٣ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج:١٤– ص: ٦٢.

٢٠٤ – أبو القاسم السجلماسي، **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع**، تحقيق: علال الغازي، الرباط،مكتبة المعارف، ١٤٠١ه، ص:٤٤٩.

٢٠٥ – د. عبد الفتاح لاشين، ، **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، ص:٢٩١.

٢٠٦ – الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج :٣٠، طهران، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ، ص: ٨١،

٢٠٧ – الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج:٣٠، ص:٨٢.

٢٠٨ – ابن القيم الجوزية، **التبيان في أقسام القرآن**، بيروت، المعرفة للطباعة والنشر، ص:٢١٩.

٢٠٩ – سورة النساء:٤٢.

٢١٠ – د. بكري شيخ أمين، **التعبير الفني في القرآن**، بيروت، دار الشروق، ١٣٩٦هـ، ص:٢٦٨.

٢١١ – الإمام عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص:١٧٤.

٢١٢ – د. محمد أبو موسى، **دلالة التركيب دراسة بلاغية**، ص: ٢١١ .

٢١٣ – الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل**، ص : ١٤٢، ج ٤.

٢١٤ – الزجاج، **إعراب القرآن**، تح: إبراهيم الأبياري بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢ هـ، أبو الحسن الباقولي (ت٥٤٣ه). لكن الكتاب المذكور نسب خطأً إلى المؤلف المذكور أعلاه. وقد تحدث عن هذا الموضوع بعض العلماء، نذكر منهم – على الخصوص – الأستاذ أحمد راتب النفاخ، رحمه الله، وذلك في مقال نشر بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد: ٤٨، جزء: ٤، سنة ١٩٧٣.

٢١٥ – د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ص: ٥٦ ، ج: ٢.

٢١٦ – ألفت النظر إلى موضع الضمير؛ لأن موضع الضمير في القرآن الكريم كثيراً ما يؤثر في معنى الآية. قارن مثلاً بين قوله تعالى:﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾(الأنعام ١٥١). وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء: ٣١).

٢١٧ – الدكتور عبد الفتاح لا شين، **المعاني في ضوء أساليب القرآن** ، ص : ٢٩١.

٢١٨ – الدكتور محمد أبو موسى، **دلالة التراكيب: دراسة بلاغية**، ص: ٣١٢.

٢١٩ – المرجع السابق، ص: ٣١٢.

٢٢٠ – الإمام ابن خالويه، **الحجة في القراءات السبع**، تحقيق: الدكتور عبد العال سالم مكرم، بيروت، دار الشروق ١٤٠١ هـ، ص: ٣٥٠.

٢٢١ – الإمام أبو زرعة، **حجة القرآن**، ص: ٧١٧.

٢٢٢ – الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ص: ٨٥، ج : ٣٠.

٢٢٣ – د. فتحي أحمد عامر، **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، الإسكندرية، منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال خيري وشركاؤه، ١٩٧٦ م، ص : ٣٤٥.

٢٢٤ – حول طبيعة الاستئناف البياني: انظر : عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، ص:١٨٥.

٢٢٥ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج: ٢٩، ص: ٨١.

٢٢٦ – أقصد الربط بين الأحداث وليس الربط بين الجمل أو الآيات.

٢٢٧ – د . محمد أبو موسى، **دلالة التراكيب**، دراسة بلاغية، ص: ٣٦٥.

٢٢٨ – محمد عبد الله الدراز، **النبأ العظيم**، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤، ص: ١٧١.

٢٢٩ – نقلا عن المرجع السابق، ص: ٣٦٥.

٢٣٠ – نقلاً عن: الزركشي، بدر الدين محمد بن يعقوب، **البرهان في علوم القرآن**، ج:١، ص: ٣٦.

٢٣١ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ص : ٨٣، ج : ٢٩.

٢٣٢ – عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ص : ١٢٠–١٢١.

٢٣٣ – المرجع السابق، ص: ١٤٦.

٢٣٤ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ص: ٨٤،ج : ٢٩

٢٣٥ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج: ٢٩، ص:٨٧.

٢٣٦ – د. محمد أبو موسى، **دلالة التراكيب، دراسة بلاغية**، ص:٣٠٤.

٢٣٧ – المرجع السابق، ص : ٣٠٤.

٢٣٨ – أبو حيان الأندلسي الغرناطي، **تفسير البحر المحيط**، ج:٨ ص : ٣١٣.

٢٣٩ – عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، ص : ١١٨.

٢٤٠ – أبو الفتح ابن جني، **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح** عنها، ج: ٢، تحقيق: علي النجدي ناصف– د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف بمصر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص: ٣٢٥.

٢٤١ – يشير الدكتور عبد العليم السيد فودة في إحصائياته لأساليب الاستفهام في القرآن الكريم إلى أن أسلوب الاستفهام ورد في المكي بنسبة ٩٩٦ أسلوباً، في حين ورد في المدني بنسبة ٢٦٤ أسلوباً، وهي نسبة عالية من دون شك. د. فودة، عبد العليم، **أساليب**

الاستفهام في القرآن، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دون تاريخ النشر، ص : ٤٨٧.

٢٤٢ – المصدر السابق، ص : ٤٨٨.

٢٤٣ – المصدر السابق، ص : ٩٠.

٢٤٤ – أقصد هنا الآيات ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ وليس الآيات التي قبلها.

٢٤٥ – الدكتور عبد الفتاح لاشين، **المعاني في ضوء أساليب القرآن** ، ص : ٢٩٨.

٢٤٦ – لقد أشار عبد القادر الجرجاني فى «**دلائل الإعجاز**» إلى الأغراض المقصودة من التقديم والتأخير في أساليب الاستفهام ، انظر الصفحة : ٨٥ وما بعدها.

٢٤٧ – محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، ص : ٩٣، ج : ٢٩.

٢٤٨ – حول طبيعة الالتفات، أنظر: الباقلاني، أبا بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق، السيد أحمد صقر القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ النشر، ص : ٩٩–١٠٠.

٢٤٩ – الإمام الفخر الرازي، ج: ٣٠، **التفسير الكبير**، ص: ٩٤.

٢٥٠ – د. عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ص : ٨٠ ج: ١.

٢٥١ – المرجع السابق، ص : ٨١، ج : ١.

٢٥٢ – الخطابي، **البيان في إعجاز القرآن**، ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تح : محمد أحمد خلف الله، محمد زغلول سلام، القاهرة، دار المعارف، دون تاريخ النشر، ص: ٤٧.

٢٥٣ – انظر ما ذكرته حول هذا الجانب في تحليل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾.

٢٥٤ – الفخر الرازي، **التفسير الكبير** ، ص : ٩٨، ج : ٣٠.

٢٥٥ – أبو حيان، محمد يوسف الأندلسي الغرناطي ، **تفسير البحر المحيط**، ص: ٣١٧، ج : ٨.

٢٥٦ – الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، **معاني القرآن**، ج: ٣، بيروت، عالم الكتاب، ص: ١٧٨.

يشير إلى هذا الرأي أيضاً : المختار الشنقيطي، محمد بن الأمين بن محمد، **أضواء البيان في إيضاح القرآن**، ج: ٨ ، بيروت، عالم الكتاب، ص: ٤٤٣٤.

٢٥٧ – سورة الصافات : ١٤٤.

٢٥٨ – محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج: ٢٩، ص: ١٠٦.

٢٥٩ – الإمام ابن خالويه، الحجة **في القراءات السبع**، ص: ٣٥١.

٢٦٠ – جمال الدين بن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ص : ٣٧.

٢٦١ – الإمام عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز في علم المعاني** ، ص : ٢٢١.

٢٦٢ – سيد قطب، التصوير **الفني للقرآن الكريم**، ص:١٠٢.

٢٦٣ – د. مصطفى الصاوي الجويني، **جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني**، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال خيري وشركاؤه، ص: ١٢٣.

٢٦٤ – مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج:١، ص: ٢١٤.

٢٦٥ – المرجع نفسه، ص:٢١٥.

٢٦٦ – جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج٢، ص ٩٧.

– الملاحظ أن مصطلح «الفاصلة» يرد في المصادر والمراجع بمعنى الحروف الأخيرة من الآية، وأيضا بمعنى الكلمة الأخيرة دون تمييز. لذلك لن أفصل بين هذين الأمرين. سنستعمل المصطلح بحسب هذا المفهوم.

٢٦٧ – الدكتور بكري شيخ أمين، **التعبير الفني في القرآن**، ص ٢٠٣.

٢٦٨ – جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن** ، ج٢. ص ٩٧.

٢٦٩ – ابن تيمية، تقي الدين، **النبوات**، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٤ه، ص: ٢٠.

٢٧٠ – الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، ج:١، تحقيق: أحمد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢، ص:٥٤.

٢٧١ – انظر: الباقلاني، **إعجاز القرآن**، ص ٩٢ وما بعدها. أيضا **التعبير الفني**: د. بكري شيخ أمين، ص: ٢٠٣.

٢٧٢ – يقول الرماني: الفواصل على وجهين، أحدهما من الحروف المتجانسة. والآخر من الحروف المتقاربة، فالحروف المتجانسة كقوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ والحروف المتقاربة كالميم والنون في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ الرماني ، **النكت في إعجاز القرآن**، ص ٩٠.

٢٧٣ – د. تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح، دار الثقافة، دون تاريخ النشر، ص ١٦٩.

٢٧٤ – المرجع السابق، ص ٥٩.

٢٧٥ – المرجع السابق، ص ٥٩.

٢٧٦ – المرجع السابق، ص ٥٩.

٢٧٧ – د. رمضان محيي الدين، **في صوتيات العربية**، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ص ١٦٩.

٢٧٨ – عز الدين علي السيد، **التكرير بين المثير والتأثير**، ص: ٦٥.

٢٧٩ – سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر. تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. دار الجيل. بيروت. الطبعة الأولى. ج ٤ ، ص: ٢٠٤.

٢٨٠ – ابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، ج:١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٥٢، ص: ٢٣٣.

٢٨١ – مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ص: ٢١٦–٢١٧.

٢٨٢ – د. عبد الله الطيب، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، ج.١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠، م، ص ٧٠.

٢٨٣ – يمكن مقارنة هذا الإحصاء بالإحصاءات الأخرى المنجزة في القرآن الكريم:

– الدكتور إبراهيم أنيس، **موسيقى الشعر**، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١م، ص ٣٦.

أيضاً يمكن مقارنة ذلك بالإحصاء الذي قام به الدكتور نعيم اليافي، مجلة الفيصل (العدد ١٠٢، ذو الحجة ١٤٠٥هـ، السنة التاسعة، ص١٠٧.

٢٨٤ – الدكتور إبراهيم أنيس، **موسيقى الشعر**، ص ٣٣.

أستثني من الحروف التي ذكرتها في السابق– التي قلت عنها إنها تتردد بنسبة كبيرة – حرف الهمزة: فهو حرف صعب في النطق. مع ذلك الحرف الواحد لا يؤثر في البنية الصوتية للكلمة.

٢٨٥ – تفيض كتب السيرة في الحديث عما كان يلاقيه الرسول ﷺ في ذلك الوقت. انظر مثلاً: ابن هشام: **السيرة النبوية**، تح: مصطفى السقا. إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ج١، بيروت، دار القلم، ص ٢٥٤.

٢٨٦ – الدكتور إبراهيم أنيس، **موسيقى الشعر**، ص ٢٩.

٢٨٧ – مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ص: ٢١٣.

٢٨٨ – الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان، **سر الفصاحة**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ ، ص ٦٤.

٢٨٩ – عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، **المزهر في علوم اللغة**، ج:١، دار إحياء الكتاب، (دون تاريخ)، ص: ١٢١–١٢٢.

٢٩٠ – أبو الفتح ابن جني، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: جماعة من الأساتذة، ط١، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٥٤، ص:٩٩.

٢٩١ – من حيث تحديد المخارج اعتمدت على «أبي الخير محمد ابن الجزري، **النشر في القراءات العشر**، تح: علي محمد الصباغ، المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي، ص ١٩٩ وما بعدها. وهي مخارج تتفق في عمومها مع مخارج المحدثين إلا من بعض الاستدراكات البسيطة سأنبه عليها.

٢٩٢ – للمزيد من التفاصيل انظر: مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ج: ٢، ص: ٢٢٠ وما بعدها.

٢٩٣ – جلال الدين السيوطي، **المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب**، تحقيق: الدكتور التهامي الهاشمي، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، ص:١٣٥.

٢٩٤ – لا أقصد بالاستعارة المفهوم البلاغي المعروف، الذي يدرس إلى جانب الحقيقة والمجاز، وإنما المقصود هو استعارة بعض العناصر اللغوية من لغة إلى أخرى. وهذا هو المفهوم الذي يتناوله علم اللسانيات الحديث. انظر: د. محمد الحناش، **البنيوية في اللسانيات**، دار النشر الحديثة، ١٤٠١ه، ص:٣٨٠.

٢٩٥ – المقطع الطويل : مثل باب– كيس – بدر .

المقطع المتوسط، مثل با، في، عن، من.

انظر د : محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري** (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٥ م) ص : ٤٦.

٢٩٦ – انظر: الباقلاني، **إعجاز القرآن**، ص : ٩٦.

٢٩٧ – نظراً لكوننا سنتناول النبر في مواضع أخرى من هذا التحليل، لا بأس من أن نقوم هنا بعرض أهم القواعد التي تقوم عليها هذه الظاهرة الصوتية:

النبر في تعريفه العلمي يقصد به «ازدياد وضوح جزء من أجزاء الكلمة في السمع عن بقية ما حوله من أجزائها» . أما قواعده، فهي على النحو التالي:

– القاعدة الأولى: يقع النبر على المقطع الأخير في الكلمة أو الصيغة إذا كان هذا المقطع طويلاً... نحو «استقلال» و «استقل».

– القاعدة الثانية: يقع النبر على المقطع قبل الأخير في الحالات التالية:

١ – إذا كان ما قبل الأخير متوسطاً والمقطع الأخير:

أ – قصيراً، نحو أخرجت– حذ ار– استلق.

ب – متوسطاً، نحو: علم– قاتل– معلم– مقاتل– استوثق....(مسكن الآخر).

٢ – إذا كان ما قبل الآخر قصيراً في إحدى الحالتين الآتيتين:

أ – بدأت به الكلمة نحو: كتب– حسب– صور– قفا.

ب – سبقه المقطع الأقصر ذو الحرف الوحيد الساكن، الذي يتوصل إلى النطق به بهمزة الوصل، نحو: انحبس– انطلق– ارعوى– اخرجي– ابتغ– امضيا.

٣– إذا كان ما قبل الآخر طويلاً اغتفر فيه التقاء ساكنين، ولم يكن الأخير طويلاً آخر، نحو: أتحاجوني– دوبية.

– القاعدة الثالثة: يقع النبر على المقطع الثالث من الأخير إذا كان:

١ – قصيراً متلواً بقصيرين. نحو: علمك– لن يصل– أكرمك.

٢ – قصيراً متلواً بقصير ومتوسط. نحو: علمك– لم يصل– أكرمك.

٣ – متوسطاً متلواً بقصيرين، نحو: بيتك– لم ينته– أخرج.

٤ – متوسطاً متلواً بقصير ومتوسط، نحو: بينكم مصطفى– أخرجوا– مفكر– نظرة– ابتسامة.

– القاعدة الرابعة: يقع النبر على المقطع الرابع من الآخر إذا كان الأخير متوسطاً والرابع من الأخير قصيراً، وبينهما قصيران، نحو: بقرة– عجلة– ورثة– كلمة– يرثيني– يعدهم– وسعه– ضربها– نكرهم.

انظر هذه القواعد في كتاب تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص: ١٧٠.

٢٩٨ – الدكتور محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري**، ص: ٣١ وما بعدها.

٢٩٩ – ابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، ج : ٢، ص : ١٦٠.

٣٠٠ – مما لا شك فيه أن الإيقاع يقوم في الحقيقة على قواعد علمية خاصة، واصطلاحات معينة لكننا سنعتمد هنا فقط على الانطباع العام، الذي تدركه الأذن ويلمسه الحس. وقد اعتمدت في هذا الجانب على ما أورد سيد قطب في كتابه **التصوير الفني في القرآن**، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣ هـ، ص: ١٠٧ وما بعدها.

٣٠١ – د. رمضان محيي الدين، **في صوتيات العربية**، ص: ١٩٣.

٣٠٢ – د. إبراهيم أنيس، **دلالة الألفاظ**، طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م، ص: ٨٦. انظر كذلك الدكتور محمد مفتاح، **في سيمياء الشعر العربي القديم**، الدار البيضاء، دار الثقافة، ص: ٦٨.

يمكن أن أسوق الحادثة التالية لعل فيها تأكيداً لما أشرت إليه بخصوص المعاني الذاتية لحركة الكسرة: تروي الأخبار أن ابن ضحيان الأزدي من أشراف الأزد كان يلحن فيقرأ: «قل يا أيها الكافرون» فيقول: «قل يا أيها الكافرين». فلما سألوه قال: «قد عرفت القراءة الصحيحة في ذلك ولكن لا أجل أمر الكفرة». بغض النظر عن الجانب الشرعي لهذه القضية، نشير إلى أن هذا الرجل كان يدرك بفطرته هذه الدلالة الذاتية لحركة الياء، وما تحيل عليه من دلالات الصغر والحقارة، والياء هي صنو الكسرة.

الخبر ورد في: **قصص القرآن في مواجهة أدب القصة والمسرح**، أحمد موسى سالم، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٨ م ، ص : ١٤٢.

٣٠٣ – مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، ج: ٢، ص: ٩٤.

٣٠٤ – تثبت الدراسات الحديثة أن عامل تنافر الأصوات لا يقل أهمية عن عامل تناغمهما. يمكن الإشارة هنا– من الناحية الموسيقية– إلى الدور الوظيفي الذي تحققه الجملة الموسيقية الناشرة في الفن الحديث؛ حيث يخرج بها الفنان عن التناغمات العادية ليعبر عن معاني أخرى يقصدها.

٣٠٥ – نقلاً عن الدكتور: ماهر مهدي هلال **جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي عند العرب**، دار الرشد للنشر، ص : ٢٩٣.

٣٠٦ – انظر الدكتور محمد مفتاح، **تحليل الخطاب الشعري**، ص:٣٢.

٣٠٧ – انظر مفهوم الإدغام في: **النشر في القراءات العشر لابن الجزري**، ص:٢٣ وما بعدها، ج:٢.

٣٠٨ – انظر مفهوم القلب في المرجع السابق، ج:٢، ص:٢٦.

٣٠٩ – آل عمران: ١٩٣.

٣١٠ – د. عبد الله الطيب، **المرشد في فهم أشعار العرب وصناعتها**، ج: ١، ص:٥٦٨.

٣١١ – المرجع السابق، ص: ٦٧٤.

٣١٢ – ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود: ٢٨)، لكن الملاحظ أن بعض هذه الكلمات التي ذكرتها لا يقل عنها في عدد الحروف.

٣١٣ – ابن سنان الخفاجي، **سر الفصاحة**، ص : ٨٨.

٣١٤ – الدكتور إبراهيم أنيس، **موسيقى الشعر**، ص : ٣١.

٣١٥ – الإمام أبو زهرة، **المعجزة الكبرى، القرآن**، بيروت، دار الفكر العربي، (ب ت)، ص: ٢٩٠.

٣١٦ – سورة القصص:١١.

٣١٧ – سورة الكهف: ٦٤.

٣١٨ – د. علي فؤاد رضا **من علوم القرآن**، بيروت: دار اقرأ، ١٤٠٢هـ، ص: ١٨٧.

٣١٩ – محمد حسين فضل الله، **الحوار في القرآن**، دار المنصوري للنشر،١٣٩٩ هـ، ص: ٢١٥.

٣٢٠ – في السورة قصة أخرى هي قصة «يونس»، عليه السلام، في آخر السورة، لكن لن أتعرض لها بالدراسة والتحليل.

٣٢١ – الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٣٠، ص، ٩١.

٣٢٢ – عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، **التفسير البياني للقرآن الكريم**، ج.٢، ص ٦٥.

٣٢٣ – سورة الصافات: ١٤٢.

٣٢٤ – تتوسع كتب التفسير في ذكر الأحداث التي جرت قبل القصة المعروضة في السورة: لقد كانت هذه الجنة لرجل صالح، يحتفظ من حصاد الجنة وثمارها فقط بما يكفي لقوته هو وقوت عياله، ويتصدق بالباقي على المساكين. أيضاً كان يترك لهم ما يخطئه المنجل من حصاد، وما يخطئه المقطاف من عنب، وما يبقى على البساط تحت النخل. وكان الأبناء يتضايقون من ذلك. فلما مات قالوا لا يمكن أن نعطي المساكين مثل ما كان يفعل أبونا.... . إلخ.

وكلها أحداث سابقة للقصة المعروضة هنا في السورة: انظر القصة بالتفصيل في التفاسير التالية:

– أبو حيان، **البحر المحيط**، ج.٨، ص ٣١١

– الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج.٣٠، ص ٨٧.

– محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج.٢٩، ص ٧٩.

٣٢٥ – سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ص١٦٢.

٣٢٦ – وقد سبق لي أن أشرت إلى هذه الظاهرة في الفصل الخاص عن التركيب النحوي. وذلك

خلال حديثي عن حرف العطف الفاء وما يحققه في القصة من حيث الربط بين الأحداث.

٣٢٧ – د. محمد أحمد خلف الله، الفن القصصي في القرآن الكريم، القاهرة، الأنجلو المصرية ١٩٧٢م، ص٢٧٤.

٣٢٨ – يرى المؤلف أن القدر من العوامل المؤثرة في القصص القرآني. ويسوق عدة نماذج يكون فيها القدر في القصة هو الذي يتعقب الأحداث ويلعب دوره إلى جانب شخصيات القصة. انظر سيكولوجية القصة في القرآن، الدكتور النهامي النقرة، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧١م، ص ٤٣٩ وما بعدها.

٣٢٩ – تعرض الأحداث في القصة اعتماداً على إحدى الطريقتين:

– طريقة تقديم الأحداث بشكل تقريري تمثل فيه الحكاية من مرحلة إلى مرحلة حتى تبلغ نهايتها.

– طريقة تقديم الحوار الذي يحاول أن يمثل فيه كل طرف من أطراف القصة، وكل بطل من أبطالها، دوره الذي يعبر عنه بأسلوب واضح. انظر:

محمد حسين فضل الله، **الحوار في القرآن**، ص ٢١٥.

٣٣٠ – علماً منا بأن هناك صوراً أخرى للحوار في القصص القرآني، مثل الحوار الذاتي في قصة إبراهيم في سورة الأنعام، وقد يكون هناك حوار بين الشخصية وعنصر آخر كالجن في قصة سليمان في سورة النمل، والطير في السورة نفسها.

٣٣١ – عبد الكريم الخطيب، **القصص القرآني في منظومه ومفهومه**، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر،(ب ت)، ص ٨٠.

٣٣٢ – بعض التفاسير تحدد زمن القصة: لقد كانت بعد رفع عيسى – عليه السلام – . انظر التفاسير التالية:

–أبو حيان، **البحر المحيط**، ج.٨، ص ٣١١.

– الإمام الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج.٣٠، ص ٨٧.

– محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج.٢٩، ص ٧٩.

٣٣٣ – عبد الكريم الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، ص ٩١.

٣٣٤ – محمد أحمد خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، ص ٥١.

* يمكن القول، إن الظاهرة نسبياً صحيحة. لكنها مرفوضة من الوجهة التي انتهى إليها المؤلف

حين استنتج أنه لا يلزم أن تكون كل حوادث القصص القرآني قد وقعت، بل منها ما هو مجرد تصوير وتمثيل للمعاني... !

٣٣٥ – محمود محمد شاكر، **مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية**، مالك بن نبي، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٢هـ، ص:٤٧.

٣٣٦ – صادفت خلال هذا البحث الكثير من الآراء التي تطالب بضرورة العناية بالقرآن الكريم في إطاره الفني والأدبي، وتنعى ما انتهت إليه الأبحاث الخاصة بالموضوع من جمود وركود. أذكر على سبيل المثال لا الحصر: الدكتور مصطفى الصاوي الجويني، **جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني**، ص ١٢٣ وما بعدها. سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، ص ٢٥ وما بعدها. محمود محمد شاكر، **مقدمة الظاهرة القرآنية**. الدكتور صبحي الصالح، **مباحث في علوم القرآن**، ص: ٣٢٥ .....إلخ.

٣٣٧ – سورة الإسراء: ٨٨.

المصادر والمراجع

أ- المصادر:

- ابن الأثير، ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٢.
- ابن تيمية، تقي الدين، **النبوات**، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٤هـ.
- ابن الجزري، أبو الخير محمد، **النشر في القراءات العشر**، تحقيق: محمد الصباغ، القاهرة: المكتبة التجارية، (ب ت).
- ابن جني، أبو الفتح عثمان:
- الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ج:١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٥٢.
- سر صناعة الإعراب، تحقيق جماعي، ط١، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٤.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ج: ٢، تحقيق: علي النجدي ناصف- د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف بمصر، القاهرة، ١٩٩٣م، ص: ٣٢٥.
- ابن الحاجب جمال الدين بن عمرو، **الأمالي النحوية** «أمالي القرآن الكريم»، ج: ١، تحقيق: هادي حسن حمودي، مكتبة النهضة العربية ١٩٨٥.
- ابن خالويه، **الحجة في القراءات السبع**، تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم، دار الشروق: ١٤٠١.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، **تفسير التحرير والتنوير**، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق: أحمد صقر، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، **تفسير القرآن العظيم**، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، (ب ت).
- ابن هشام، محمد بن عبد الملك، **سيرة النبي**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار

الفكر، للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ١٩٣٧م.

- ا بن هشام، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: د. مازن المبارك، محمد علي حمدالله، دار الفكر، بيروت، ط٦: ١٩٨٥، ص: ٥٦٦.
- أبو إسحاق الزجاج، **إعراب القرآن**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٢هـ.
- أبو حيان، الأندلسي الغرناطي، **تفسير البحر المحيط**، ج: ٨، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٣ هـ.
- أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن زنجلة، **حجة القرآن**، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٤، ١٩٨٤.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، تحقيق: أحمد صقر، القاهرة: دار المعرفة، ١٩٥٤م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون ج:١، دار الجيل، بيروت، ب–ت.
- الجوزية، ابن القيم، **التبيان في أقسام القرآن**، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، (ب ت).
- الجويني، مصطفى الصاوي الجويني، **جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني**، الإسكندرية: منشأة المعارف بالإسكندرية جلال حزي وشركاؤه، (ب ت).
- الخفاجي، محمد بن سعيد بن سنان، **سر الفصاحة**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ.
- الرازي، الفخر، **التفسير الكبير**، طهران، دار الكتب العلمية، (ب ت).
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، ج:١، تحقيق: أحمد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٢.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ، (ب ت).
- السيوطي، جلال الدين:
- الإتقان في علوم القرآن، بيروت، المكتبة الثقافية، ١٩٧٣.

- المهذب في ما وقع في القرآن من المعرب. تحقيق: د. التهامي الراجي الهاشمي، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، (ب ت).
- لباب النقول في أسباب النزول، بيروت، ١٩٧٨.
- العسكري، أبو هلال، **الفروق في اللغة**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٣.
- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، **معاني القرآن**، تحقيق: محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥ .
- القاسمي، محمد جمال الدين، **محاسن التأويل**، ج:١٥، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥.
- المختار الشنقيطي، محمد بن الأمين بن محمد، **أضواء البيان في إيضاح القرآن**، ج: ٨.
- النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، **أسباب النزول**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ.
- مسلم، أبو الحسن بن الحجاج القشيري، **صحيح مسلم**، تحقيق: فؤاد محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

ب- المراجع:

- الإمام أبو زهرة، **المعجزة الكبرى** (القرآن)، بيروت، دار الفكر العربي، دون تاريخ النشر. ١٣٩٦هـ.
- أمين بكري الشيخ، **التعبير الفني في القرآن**، بيرروت، دار الشروق، ١٣٩٦هـ
- أنيس إبراهيم:
- دلالة الألفاظ، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م.
- موسيقى الشعر، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١م،
- أبو زيد، أحمد، **التناسب البياني في القرآن**، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات، رقم: ١٩- ١٩٩٢.
- بدوي، أحمد، **من بلاغة القرآن**، القاهرة، بيروت، ط١: ١٩٥٠م.

- البزرة، محمد، **إعجاز القرآن: دراسة تحليلية لسورة الأنفال – المحتوى والبناء**، دار المأمون للتراث، ط١: ١٩٨٨.
- حسان، تمام، **اللغة العربية معناها ومبناها**، البيضاء، دار الثقافة، (ب ت).
- الخطيب،عبد الكريم، **القصص القرآني في منطوقة ومفهومه**، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، بدون تاريخ النشر.
- خلف الله، محمد أحمد، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٢م.
- خلف الله، محمد أحمد، سلام، محمد زغلول، **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، القاهرة، دار المعارف، (ب ت).
- الدراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم**، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤.
- الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، بيروت، دار الكتاب العربي: ١٣٩٤هـ.
- رضا، علي فؤاد، **في علوم القرآن**، بيروت دار إقرأ، ١٤٠٢هـ.
- رمضان، محيي الدين، **في الصوتيات العربية**، عمان، مكتبة الرسالة الحديثة، (ب ت).
- سالم، أحمد موسى، **القصص القرآني في مواجهة القصة والمسرح**، بيروت، دار الجيل ١٩٧٨م.
- السمرائي، إبراهيم، **من بديع لغة التنزيل**، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، ١٤٠٤هـ.
- شاكر،محمد محمود، **مقدمة الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي**، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
- الشرقاوي، عفت، **بلاغة العطف في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية**، بيروت، دار النهضة للطباعة والنشر، ١٩٨١م.
- الصالح، صبحي، **مباحث في علوم القرآن**، بيروت، دار العلم للملايين، بدون تاريخ النشر.
- الطيب، عبد الله، **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها**، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٥.
- عاطف الزين، سميح، **مجمع البيان الحديث، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠.

- عامر، فتحي أحمد، **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، الإسكندرية، منشأة المعارف بالإسكندرية جلال خيري وشركاؤه، (ب ت).
-عبد الرحمن، عائشة، بنت الشاطئ:
- **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**: **دراسة لغوية وبيانية**، دار المعارف، ط٣: ٢٠٠٤.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، القاهرة، دار المعارف، ١٣٨٨م.
- القرآن وقضايا العصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٩.
- من أسرار العربية في البيان القرآني، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٢م.
- القزويني، الخطيب، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠.
- قطب، سيد:
- التصوير الفني في القرآن، بيروت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ.
- في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٤٠٠م.
- مشاهد القيامة في القرآن، بيروت، دار الثقافة، ١٤٠٤هـ.
- لاشين، عبد الفتاح، **المعاني في ضوء أساليب القرآن**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧.
- مصطفى، محمد السيد، **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية**، الإسكندرية، مؤسسة الشباب الجامعية ١٩٨١.
- مفتاح، محمد:
- تحليل الخطاب الشعري، بيروت، دار التنوير للطباعة والنشر، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٥.
- في سمياء الشعر العربي القديم، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٨٢م.
- هلال، ماهر مهدي، **جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي عند العرب**، دار الرشد للنشر، (ب ت).